مُحرّكات السياسة الفارسيّة في منطقة الخليج العربي

عادل علي عبدالله

٢٠٠٨م



"إن الشعور السائد لدى جميع الحكومات الفارسية المتعاقبة، أن الخليج العربي الفارسي من بداية شط العرب إلى مسقط، بجميع جزائره وموانئه بدون استثناء، ينتهي إلى فارس؛ بدليل أنه خليج فارسي وليس عربيا".

حلنجي ميرزا (رئيس وزراء إيران) ١٨٢٢م



تصدير

بقلم: د. عبدالله فهد النفيسي

إيران دولة مُصدرة للنفط، وتعتمد في الأساس على هذه السلعة كإستراتيجية لإنقاذ إستراتيجيتها العليا (Grand Strategy)؛ لذلك نلاحظ أن إيران حريصة على استقرار سوق النفط وأمن الطرق المائية والبرية لتسويقه ووصوله إلى الأسواق العالمية.

كما نلاحظ أن إيران استثمرت ثروتها النفطية بشكل نشط في تحقيق أكبر قدر ممكن من التنمية الداخلية (كهربة الريف، شبكة طرق، حركة تعليم وطني، تطبيب وغير ذلك)، يرافق ذلك تَوْق إيران لدور إقليمي يتناسب مع قابليتها الإستراتيجية.

نحن نلتقي مع إيران في ضرورة الحفاظ على استقرار السوق النفطي، ونلتقي معها في حركتها الدؤوبة والناجحة والناشطة في التنمية الداخلية، لكن نختلف مع إيران في طبيعة الدور الإقليمي (Regional Role) الذي تشتهيه وتتشوق إليه؛ فكثافة إيران السكانية (حوالي ثمانين مليون) بالقياس للندرة السكانية التي تعاني منها دول مجلس التعاون الخليجي (GCC)، ومساحة إيران الشاسعة (ستة أضعاف العراق)، وحدود إيران المشتركة مع دول عديدة ذات أهمية عسكرية واقتصادية وسياسية (الاتحاد السوفيتي سابقاً)، وعراقة الدولة والتكوين السياسي الراسخ،

ونُضج المكونات الاجتماعية، والصراع الطبقي المستعر في الداخل، وعلى مدى تاريخي؛ كل هذه الملابسات الزمانية والمكانية رسّخت في الخيال الإيراني العام كثيرا من شُحنات الاعتداد التاريخي والديمغرافي إزاء التعامل السياسي مع الضفة العربية المقابلة في الخليج.

أضف إلى ذلك أن "المحرّك الفارسي/ The Persian Catalyst" الذي يُغذي النزعة التاريخية المضادّة للعرب، باعتبارهم الأمّة الوحيدة التي تمكنت من فتح (بلاد فارس)، أضافت مزيداً من الوقود في شاحن المحرّك الفارسي، الذي لا زال يتفاعل في اتجاه الوصول إلى الشاطئ الغربي من الخليج لتصفية الحساب التاريخي.

كان عام ١٩٧٩ علامة تاريخية فارقة بين حقبتين: ما قبلها كانت الشيعة طائفة مستضعفة، وما بعدها تحولّت إلى طائفة منصورة ومُستنفرة؛ فالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ كانت زلزالاً مَركَزُهُ طهران، لكن تردّداته وصلت إلى واشنطن عبر المحيط الأطلسي.

عشية الثورة، يوم اقتحم الطلبة الإيرانيون السفارة الأمريكية في طهران، قال جيمي كارتر (Jimmy Carter) الرئيس الأسبق للولايات المتحدة للمجتمعين في غرفة العمليات (Operation's Room) في قبو البيت الأبيض: "They have us by the balls"، حسب رواية جاري سيك (Gary Sick) في كتابه المُمتع "All Fall Down" صفحة ٢٠٩.

يوري لوبراني (Uri Lobrani) سفير إسرائيل لدى بلاط

شاه إيران فرّ بمساعدة الأمريكان من طهران وقال: "العالم دخل مرحلة جديدة"، لقد أنشأ الحلف الأطلسي (NATO) لِجانه الخاصة لدراسة ظاهرة الاحتشاد الشيعي العالمي، ومقدرته الفائقة في عمليات الاستدعاء السياسي (Political Mobilization)، والحرب النفسية (Psychological Warfare)، والتنظيم الحزبي (Party Organization).

كبريات الجامعات في العالم: هارفرد، وكمبردج، وأوكسفورد، وييل، وبرينستون... وغيرها كثير، استحدثت مُقررات وكورسات جديدة لدراسة التشيّع كنظرية ثورية انقلابية، مُرشحة لأن تلعب دوراً عالمياً، كالذي لعبته الماركسية اللينينية ما بين ١٩١٧ – ١٩٩٢.

مئات من رسائل الدكتوراه في العالم بَسَطت موضوع الثورة الإيرانية، والتشيّع السياسي وإفرازاته السامة؛ رجالات الثورة: الخُميني وطالقاني وبهشتي ومنتظري ومُطهّري ورفسنجاني ومهدوي كنجي وخوئيني ها وخلخالي... وغيرهم كثير، صاروا نجوما تتسابق محطات التلفزيون على الظفر بكلمة من أحدهم أو تصريح.

وخلاصة القول: إن العالم - كما قال يوري لوبراني (ومن خلال الثورة الايرانية) - دخل مرحلة جديدة.

كان من الطبيعي أن تمر الثورة الإيرانية بالمراحل الطبيعية التي تمر بها أية ثورة في عالمنا المعاصر (الثورة البلشفية في روسيا ١٩١٧، والثورة في الصين ١٩٤٩، والثورة في كوبا ١٩٥٨ وغيرها)، وكان من الطبيعي أن تمُرَّ الثورة الإيرانية - من حيث هي انتصاف

تاريخي، وإعادة بناء داخلي، وتواصل خارجي- بثلاث مراحل: مرحلة (الاستنفار الثوري)، تليها مرحلة (بناء الدولة)، تليها مرحلة (التواصل مع الخارج).

المرحلة الأولى مثلتها قيادة الخُميني، والثانية رفسنجاني، والثالثة خاتمي؛ لكن – كما يقولون – "التاريخ والثورة ليست حفلة شاي"؛ فالعراق - بقيادة صدّام حسين - وضع الجواب العربي على الثورة الإيرانية على الطاولة من خلال اكتساحه الأراضي الإيرانية في سبتمبر ١٩٨٠، في حرب طاحنة لم تتوقف إلا في ١٩٨٨؛ أكلت الأخضر واليابس على الجانبين، وخسرت فيه كل الأطراف كل شيء؛ لكن أخطر نتيجة وتفريعه للحرب كانت مُساهمتها في تعزيز البناء المنطقي للتفكير الطائفي الشيعي؛ كرد فعل لمساندة دول مجلس التعاون الخليجي (دول سُنية)، وعلى مدى ثماني سنوات للعراق ضد إيران: العراق السُّني ضد إيران الشيعية، ساهمت تلك الحرب في عملية الفرز السياسي داخل إيران لصالح التشدّد الطائفي المذهبي الشيعي لمقابلة الاصطفاف العربي (السُّني) المؤيد للعراق في عدوانه على إيران.

من نتائج ذلك الفرز، انزواء الأطياف السياسية الإيرانية الوطنية (كمثال: كريم سنجابي، ومهدي بازرجان) لصالح المَلالي والأطياف الشيعية الفاقعة.

وَجد الشيعة في الجمهورية الجديدة مُتَنَفساً تاريخياً يستجيب لمطلبهم الذي طالما عملوا من أجله: الوجود السياسي المشروع؛ لذلك ينص دستور الجمهورية الإيرانية، في مادته الثانية عشرة، على أن: (الدين الرسمي لإيران هو الإسلام والمذهب الجعفري الاثنا عشري، وهذه المادة تبقى إلى الأبد، غيرقابلة للتغيير)، فمن خلال

هذا النص في الدستور الإيراني الحالي تكشفت الثورة الإيرانية عن كينونة عقائدية تختلف عن كينونة الأمة الإسلامية، التي تدين بدين الإسلام السُّني، الذي يُعبِّر عن غالبية المسلمين في العالم؛ إذ لا يتجاوز الشيعة في العالم الإسلامي (إيران، الهند وباكستان حيث يتركزون) نسبة ١٢٪ من مجمل العالم الإسلامي، بينما يشكل أهل السنة والجماعة نسبة لا تقل عن ٨٨٪.

دخلت إيران – بعد وضع الدستور الإيراني ذي المنحى الشيعي الفاقع- في مرحلة ديالكتيكية (جدلية) تتهاود بين الدمج مع الأمة الإسلامية والنّبذ عنها؛ هكذا أحيانا وهكذا أخرى؛ وسنلاحظ أن إيران دائما تؤكد – ولتجاوز الفجوة مع العالم الإسلامي السُّني- أن داخل إطار السُّنة ثمة المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي، وأن الشيعة من الممكن اعتبارها المذهب الخامس، وهذا التفاف على الموضوع؛ إذ الخلافات الفرعية جداً (في الفقه عموماً) بين المذاهب السنية لا ترقى إلى الخلاف المركزي (في جوهر العقيدة)، بينها والمذهب الشيعي المُتبنى في إيران.

هذا على مستوى (النّص)، أمّا على مستوى (الممارسة) فسنلاحظ أن إيران – ومنذ عشية الثورة – حريصة على نقل المرجعية المذهبية للشيعة في العالم من (النجف) في العراق، حيث كانت دائما إلى (قُم) في بلاد فارس؛ ليس هذا فحسب، بل مارست ايران ضغوطاً كبيرة على الأوساط العُلَمائية في طائفة الشيعة لأنْ يتولى العلماء (الفُرس) المرجعية حتى في النجف؛ لذا سنلاحظ أن إيران فرضت (السيستاني) الإيراني الجنسية الفارسي على مرجعية النجف العربية تاريخياً، فنشأ النزاع بين الشيعة العرب والشيعة الفُرس، الذين يتمتعون بالحماية والرعاية من إيران في

العراق.

في كل الأحوال سيلاحظ أي مراقب لحال العراق أن (المحرّك الفارسي) جزء لا يتجزأ من المشهد هناك في سياسة إيران على الأرض.

كشفت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عن موقف إيراني جديد إزاء الولايات المتحدة؛ إذ أبدت إيران أكثر من مّرة، وبصور متعددة، استعدادها الكبير للشراكة مع الولايات المتحدة الأمريكية في مطاردة تنظيم القاعدة (السُّني)، والذي يُرَوَّج أنه مسؤول عن عملية مانهاتن؛ بالطبع رحّبت الولايات المتحدة الأمريكية بهذه المبادرة الإيرانية، وتشكّلت لجان مشتركة للاستفادة من خزين المعلومات الهائل المتجمع لدى الاستخبارات الإيرانية العاملة في منطقة هيرات، ومزار شريف، ومناطق الشمال الغربي من أفغانستان، حيث يتركز (الهزارا) شيعة الأفغان؛ ويبدو أن العمل الميداني المشترك بين الإيرانيين والأمريكان في هذه المنطقة بالذات، والذي سبق الغزو والهجوم الأمريكي على الأفغان وطالبان، كان ذو أهمية كبيرة لعملية إسقاط حكم طالبان.

عند هذا المفترق في العلاقات بين (الثورة الإيرانية) والولايات المتحدة بدأت عملية براجماتية طويلة المدى بين الطرفين: الإيرانيون يجتهدون لإبداء كل تعاون مع الأمريكان لإسقاط طالبان (الجار في الشرق)، والأمريكان يؤكدون للإيرانيين أن هناك قائمة طويلة من الأعداء (المشتركيين)، وبالأخص صدام حسين، والعرب عموماً، وكل المخاطبات والمراسلات والتصريحات الأمريكية في تلك المرحلة تشير إلى (الخليج الفارسي/ Persian Gulf)، وتشير إلى (الفرس) و(بلاد فارس/ Persia)؛ تأكيداً على

(المحرك الفارسي) كما يسميه عادل عبدالله.

(إسقاط طالبان) وهو عمل مشترك بين الفرس والأمريكان، فتح الباب واسعا لتعاون مشترك لإسقاط صدّام حسين في بغداد، وإسقاط صدام ٢٠٠٣ (في عملية خيانة كبيرة) فتح الباب لتعاون إيراني أمريكي، ربما إستراتيجي في عموم المنطقة.

نلاحظ أن إيران في هذه الأثناء حركت كل رصيدها البراجماتي للوصول مع الأمريكان إلى حل شامل في العلاقات؛ لذا سنلاحظ أن الأمريكان يُهدؤون من روع الإسرائيليين، وفي نفس الوقت يُهدؤون من روع الإيرانيين؛ ويروّج بين المراقبين أن طبيعة الحوادث التي تدور هذه الأيام بين الإيرانيين والأمريكان هي حول صفقة كبيرة وشاملة في المنطقة، تخدم مصالح الطرفين، تنطوي هذه الصفقة على اعتراف إيران بإسرائيل (وبشكل تدريجي)، وما يستتبع ذلك من إجراءات إيرانية مهمة في لبنان وسوريا، والتخليّ عن الملف النووي، وتقييده بقيود كثيرة، مقابل أن تعترف الولايات المتحدة (بوضع إيران الخاص) في العراق والجزيرة العربية، وهنا يكمن خطر هذه الصفقة لدى شعوب مجلس التعاون الخليجي، ومعظمهم من السُّنة العرب.

كأن دراسة عادل عبدالله هذه (محركات السياسة الفارسية في منطقة الخليج العربي)، وهي المشتملة على المزاوجة، وأحياناً الموافقة بين المادة التاريخية الكثيفة، والتحليل السياسي الذي لا يخلو من الرشاقة والألفة؛ أقول: كأنها استشراف لهذه الصفقة الجنينية بين الأمريكان والإيرانيين في الخليج.

مرّةً – في لحظة تجلي وحميمية في قناة (الجزيرة) مع محمد كريشان – قلت له: "في الخليج ثمة زواج متعة بين إيران والولايات

المتحدة الأمريكية، لا ندري مَن العريس ومن العروس فيه؛ لكن حتماً – هكذا نعتقد – أن المتضرّر الأكبر من هذا الزواج (السفاح) سيكون عرب الخليج والجزيرة العربية، ويليها العرب عموماً".

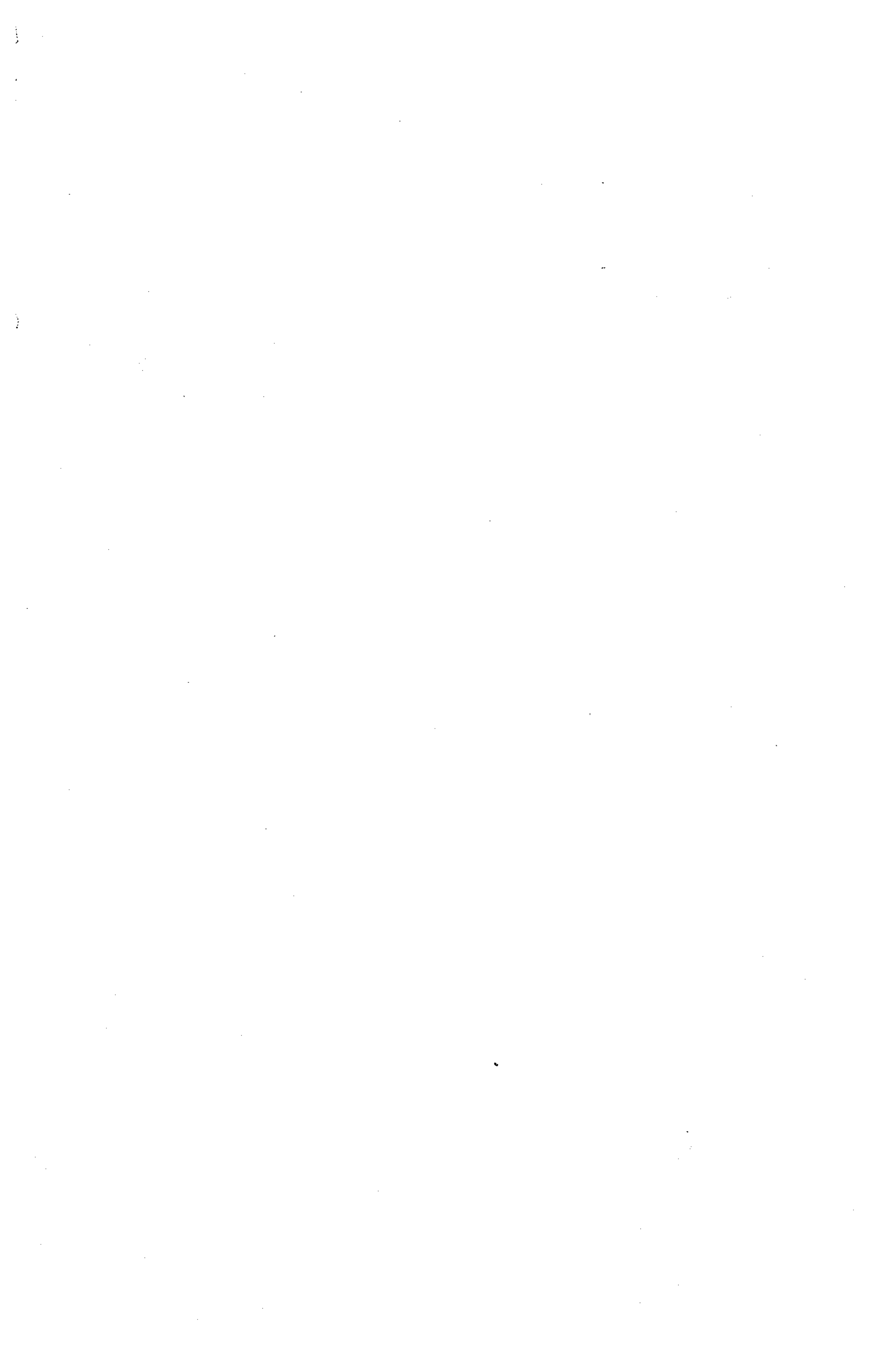
دراسة عادل عبدالله تؤكد أن إيران تلتزم بفارسيتها أكثر من التزامها بإسلامها أو حتى بشيعيتها؛ يشهد على ذلك اجتهاد إيران في تغذية النزاع الطائفي في العراق عبر ميليشيات عديدة تغذيها بالمال الوفير، والسلاح، والخبرة، والتدريب السياسي والفني والعسكري. سنلاحظ أن إيران لم تتردد خلال كل ذلك من تسليح وتحريض بعض التنظيمات العربية السنية في العراق للاعتداء على بعض البلدات الشيعية؛ من أجل الحفاظ على وتيرة معيّنة من سخونة النزاع الطائفي هناك؛ للحفاظ تباعاً على الأجواء المناسبة للتدخل، ودفع شيعة العراق للاضطرار في طلب النجدة الإيرانية؛ وهذه هي – بالمناسبة – هي العقيدة العسكرية الأمريكية: تغذية النزاعات الخفيفة المحدودة والمحكومة إستراتيجيا (Low Intensity Conflict).

هل تتحرك إيران - في المشهد الخليجي - وفق رؤية عقائدية أو تاريخية أو مصلحية؟ ربما وفق المزاوجة بين هذه الأبعاد الثلاث؛ لكن – (أكيداً) – كما يقول الفرس: في مسار فارسي (حتماً).

د. عبدالله فهد النفيسي – الكويت

١٠ يونيو ٢٠٠٩

المحتويات



تقدمة

يعيش العالم الإسلامي عموما، ومنطقة الخليج العربي خصوصاً، حالةً استثنائيةً على مختلف الأصعدة الحضارية الإنسانية، ووصفها بالاستثنائية هو الأقرب للحالة الراهنة، التي يصعب -في كثير من الأحيان- فهمها أو قياسها، لكثرتها وتسارعها المضطَرد؛ والتي تصدم الفرد -الذي يعيش في هذه المنطقة الملتهبة- في صميم حياته اليومية، وتملأ سمعَه وبصرَه، بل ضميرَه وعقلَه، فيستحيل عنصرا منفعلا لا فاعلا، أو -بعبارة توصيفية أدق- يتحوَّل إلى شيء طافٍ على أمواج تقذف به ذات اليمين وذات الشمال، دون أن تكون له مرسًى تُؤَمِّنُ له شيئا من الاستقرار أو الأمان.

ومن المؤسف أن هذه الصورة لا تختص بالفرد (=الشيء) المحكوم، بل تشمل الأفراد (=الأشياء) الحاكمة، التي أخذت تتصف -شيئا فشيئا- بنوع من عدم التناسق، فتخرج نغمات شاذة في سمفونية السياسة العربية الخليج العربية؛ فيقرأ المراقب -عبر وسائل الإعلام المختلفة- «فوضى الخلاص» التي تأتي من دولة خليجية هنا، وشخصية ذات وزن خليجي هناك، ومؤتمر عربي هنا، وخليجي هناك.. وتكون النتيجة التقليدية في هذه المرحلة الاستثنائية، الاصطدام بمصالح القوى الكبرى (=صاحبة القرار الإستراتيجي الفعلي)، أو عدم الاتفاق معها، ويعود الكل إلى المربع الأول، فتعزف علينا الآلة الإعلامية مرة أخرى لحن فوضى

الخلاص، الذي يصفه رجل الشارع بـ«الضعف العربي».

وفي المقابل، يقرأ إنسان الخليج العربي (=الشيء) بكل إعجاب أحيانا، وبحذر غالب، التجربة الإيرانية بعد الثورة الخمينية، الموصوفة بالإسلامية؛ كيف نهضت وبرزت، ثم صمدت وناطحت أكبر القوى الفاعلة في منطقة الدين والنفط، فخرجت إيران عملياً من قانون «الشيئية» المفروض على شعوب المنطقة وحُكَّامها، وتحولت إلى مشروع «شرطي الخليج»، في تنافس محموم مع «هراوة منطقة الشرق الأوسط»: الكيان الإسرائيلي.

إن شعوب الخليج العربي وحكوماتها منقسمة على نفسها في فهم أو استيعاب إيران، فضلا عن الثورة الخمينية، وعلى الرغم من هذا الانقسام المتجذِّر، والحذر الشديد، والتخوُّف الظاهر، إلا أن القارئ لا يجدُ دراسات شمولية للمسألة الإيرانية في نسختها الجديدة، وهي تجربة جديرة بالقراءة المتأنية، والاستيعاب الشمولي للدوافع الإيرانية المحرِّكة باتجاه المناكفة أو الخصومة أو حتى التَّحارُب مع جيرانها: دول مجلس التعاون.

والحقيقة أن تلك الخصومة لا تقوم على أسباب عقائدية فكرية فقط، ولا على أبعاد تاريخية وحدها، ولا على مصالح مادية؛ إنها كُلٌّ لا يتجزأ أو يُفكك، ومن الخطأ أن يُدَقَّق النظر في أحدها، وتُبنى عليه نظريات وإستراتيجيات وتكتيكات، محكوم عليها بالفشل منذ البدء؛ إن النظرة التي تقدمها هذه القراءة هي محاولة فهم «ثلاثية الأبعاد» للمسألة الإيرانية، ولا تَدَّعِي الاستيعاب أو نهاية التقصي البحثي، لكنها ترسم خطوطاً بأقلام رصاص، على أمل أن تلق من يُكمل اللوحة بأبعاد متعمقة، وبرامج قابلة للتطبيق كفيلة بإحداث توازن للقوى الإستراتيجية، والتي

لن تكون لها قيمة ما لم تُقرأ وتُفهم من أصحاب القرار في الخليج العربي أولا؛ إذ يجب أن يعترفوا أن أكبر إخفاقاتهم تأتي من عدم قراءتهم، بل أُمِّيَّتهم الثقافية الواضحة، ومن ثم تصبح مثل هذه الدراسات إحدى إستراتيجيات العمل، للخروج من هذا الاستثناء، وحينها ستؤذن بانتهاء «فوضى الخلاص» التي طال أمدها.

عادل علي عبدالله

adel.abdulla@gmail.com

نوفمبر ٢٠٠٨



تمهيد

تعاملت حكومات الخليج العربي مع السياسات الفارسية -منذ الدولة الصفوية-على أنها إحدى أهم المُقلقات الإقليمية؛ نظراً لأسباب إستراتيجية جوهرية، وأبعاد تُحدّدُ حجمَ وحقيقةَ ذاك القلق، من أهمها البُعد العقائدي «الصفوي» للدور الفارسي في الهيمنة على هذه المنطقة؛ وما مشروع تصدير الثورة إلا ذراعٌ سياسيٌ يَصبُّ في مصلحة النظام، برصيدٍ تاريخي محفز لمشروع نهضة الإمبراطورية الفارسية الشيعية، بتكتيكات سياسية مصلحية، تتحرك بدرجة عالية من البراغماتية الذكية بين الطموح الشعوبي، والتهديد الدولي الفاعل في المنطقة.

وغير خافٍ أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم دولة ذات مشروع عالمي تبشيري، يمتد من أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأقصى، لكن عينها الدائبة مصوَّبة إلى قلب الجغرافية الإسلامية (=شبه الجزيرة العربية)، ويمكن فهم الخط العام للسياسية الإيرانية الماضية واللاحقة لهذه المنطقة الحيوية من العالم من خطاب رئيس الوزراء الفارسي حلنجي ميرزا لوزير الخارجية البريطاني آنذاك (أبردين)[1]،

---

(١) اسمه: (George Hamilton Gordon) وتقلد وزارة الخارجية لفترتين متعاقبتين في الحكومة البريطانية، وصورته التي في المتن. (يراجع موقع الخارجية البريطانية: www.fco.gov.uk).

عندما اعترضت فارس[١] رسمياً عام (١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) على عقد بريطانيا سلسلة اتفاقيات مع شيوخ البحرين آنذاك، ومثلهم الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة[٢]؛ على اعتبار أن البحرين تابعة لفارس، وعليه طالبت الحكومة البريطانية بنفوذها السياسي على البحرين، فردَّ وزير الخارجية البريطاني بنفي أي أحقية لإيران على الأرخبيل، بله على الخليج كله، فأجابه رئيس وزراء إيران بمذكرة -تُعدُّ مفتاح فهم السياسة الإيرانية على واقعها في المنطقة-قائلا: "إن الشعور السائد لدى جميع الحكومات الفارسية المتعاقبة، أن الخليج الفارسي من بداية شط العرب إلى مسقط، بجميع جزائره وموانئه بدون استثناء، ينتهي إلى فارس، بدليل أنه خليجٌ فارسي وليس عربيا".



الوزير أبردين

وما يواجه النخبة والعامة في فهم أبعاد اللعبة الفارسية هو التجزيء وتشرذم الفهم لكامل الصورة على الخريطة الخليج العربية؛ إذ يعتقد البعضُ أن مفتاحَ الفهم كله يَكمُن في الجانب العقائدي، ويُركز عليه بحثه ومن ثَمَّ معركته المضادة، في حين يعتقد آخرون -وهم الأكثر-أن المسألة لا تعدو تصارع مصالح سياسية،

(١) معلوم تاريخياً أن التسمية الرسمية للدولة كان فارس إلى عام ١٩٣٥م، حيث غير تسميتها الشاه رضا بهلوي إلى إيران.

(٢) تقاسم السلطة على حكم البحرين وقتها كل من الشيخ عبدالله بن أحمد الذي له أمر جزيرة المحرق (قائد الأسطول الخليفي البحري)، وابن أخيه الشيخ خليفة بن سلمان الذي له أمر جزيرة المنامة (قائد الخيالة)، والأخير غير معروف كثيرا في كتب التاريخ. (نقلا عن الدكتور محمد أحمد، أستاذ التاريخ بجامعة البحرين، في أثناء مراجعة مادة الكتاب).

ويَنسى بعضهم أن نظام الجمهورية الإيرانية متعدد المراكز، وكلا الطرفين (العقائدي والمصالحي) يأخذ ما يُعزز وجهته من التاريخ الفارسي الحديث، وتحديدا الصفوي.

والحقيقة أنه لا يمكن مشاهدة الصورة مجزَّأة على هذا النحو الانتقائي، بل الأجدى أن تُنظر كلها بأطرها الشمولية وأبعادها الكُلّية، ضمن المسارات التاريخية للوضع الفارسي المُختَزِن بتقلبات سياسية، والمُشرَب بتلاوين العقائد والإثنيات والطوائف، فالمسألة الفارسية لصيقة بتاريخ المنطقة، والتصارع العربي الفارسي يمتد إلى العصر الجاهلي، والاصطفاف مع الفرس أو ضدهم مسألة تسبق الوجودَ الإسلامي، الذي له حُكم صريحٌ في المسألة الشُّعُوبية، وهي القضية الكبرى التي فتَّت الكيان الفارسي قديما، وأعادت تجميعَه لاحقا، واليوم تُعيد لحمته وتعملُ في تفكيك خصومه من الأحلاف العربية.

الميلاد الصفوي

يعتقد الباحثون أن امتداد الطموح الإمبراطوري الفارسي الحالي يعود إلى العصر الساساني، إلاَّ أن ما أحدثه إسماعيل شاه الصفوي[1] (٩٠٧هـ/١٥٠١م) يُعدُّ نقلةً نوعية على المستويات

(١) أبو المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، أو إسماعيل الصفوي (٢٥ رجب ٨٩٢ هـ/ ٢٥ يوليو١٤٨٧م = ١٨ رجب٩٣٠ هـ/ ٣١ مايو ١٥٢٤م) مؤسس الدولة الصفوية في فارس، القائد الديني الذي أسس الحكم للصفويين، وقام على تحويل فارس من أهل المذهب السُّني إلى الشيعة الإثنا عشرية، وقد أورد عدد من الباحثين صورا من وحشية القتل الجماعي لإرغامهم على التحول، حتى عُرف في التراث والفلكلور الفارسي المتناقل مشافهة لقب خاص لمن بقي من أبناء السنة، الذي رفض آباؤهم التحول، فأحرقهم الشاه بالنار حتى هلكوا، وعُرف اسم آخر للسنة

السياسية والعقائدية والفقهية على أرض فارس كلها؛ بتحويل مبدأ «ولاية الفقيه» من حيّز الفكر الفقهي الجزئي إلى حيّز العمل السياسي الإستراتيجي، وحقيقتها (=ولاية الفقيه) أنها منصبٌ إلهي أُنيطَ بالإمام كخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، "وبما أن الإمام حيٌّ ولكنه غائب عن الأنظار، ولم يفقد سلطته الإلهية بسبب غيبته، فإن هذه السلطةَ تنتقل منه إلى نُوّابه؛ لأن النائبَ يقومُ مَقامَ المَنُوبِ عنه في كل شيء..."[1]، وهو ما يَعُدُّه موسى الموسوي المرحلةَ الثانيةَ في مسيرة بلورَة التشيُّع بصورته الحالية؛ إذ إن إسماعيل شاه هو مَن أعلنَ التشيُّعَ الصُّوفي مَذهباً رسمياً لبلاده لأسبابٍ سياسية بحتةٍ تتعلق بتوسع الدولة الصفويةِ وصراعها ضد الدولة العثمانية ذات الهوية الصوفية السُّنية الحنفية، فتحرّكتْ جحافلُ جيوشهِ في المدن الفارسية تحثُّ أهلها على الدخول في المذهب الشيعي، وأَعمَلَ السيفَ في رقابِ مَن لم يُعلن تشيُّعَه[2]؛ فأعطى المذهبُ الجديدُ الذي أملاه الشاه على الشعب الفارسي تماسكاً قوياً لأغلب العجم، وحررهم من عُقدة التبعية للمغول: الغزاة البوذيين القساة، فقضى على كل الآمال التي كانت تراود الخليفة العثماني


الشاه إسماعيل الصفوي

في إيران هو "Pedar Sukhtah /بدر سوخته" أي مَحروقي الوالدين؛ لأنهم سلالة الذين رفضوا التحول إلى الإثني عشرية الفارسية.

(١) د. موسى الموسوي: الشيعة والتصحيح، الصراع بين الشيعة والتشيع، صفحة ٩٦ وما بعدها/ الزهراء للإعلام العربي-القاهرة. ط ١٩٨٩/٢م.

(٢) يعتقد بعض الباحثين نقلا عن الكتب التاريخية أن إسماعيل شاه قتل في سبيل نشر المذهب الشيعي قرابة المليون من أهل السُّنّة في إيران والعراق.

لضم فارس إلى خلافته، في حين كان الشاه يرى نفسَه قُطباً صُوفياً ومَلِكاً تُركُمَانياً أسس للشيعة مَجدًا لم يُؤَسِّس أحدٌ مِثلَه من قبل، إلا أنه خضع لولاية الفقيه، وطلب من كبير علماء الشيعة بجبل عامل اللبناني: علي بن عبدالعال الكركي العامِلي، أن يُحكِمَ له دعائمَ السياسة والملك، ويُجيزَه الجلوسَ على كرسي الملك والحكم باسم «الولاية العامة» التي هي من صلاحيات الفقيه، وما زالت كتب التاريخ تحتفظ بالنصوص الواردة في إجازة الكركي للشاه.[1]

ومنذ أن أدخل الشاه إسماعيل الصفوي أغلب العَجَم في المذهبِ الشيعي -وحتى كتابةِ هذه السطور-، فإن للزعامة المذهبيةِ الشيعية نفوذاً واسعاً وكبيراً في فارس، ويحظى باحترام عظيم من قبل الملوك والحكام، وعلى الرغم من أن العلاقات بين الزعامة المذهبية والزعامة السياسية كانت على خير ما يرام عبر التاريخ، إلا أنه كان يَحدث في بعض الأحيان صراعٌ بينهما ينتهي بانتصار أحدهما على الآخر؛ لكن منذ أن جعل الشاه إسماعيل من «ولاية الفقيه» مَنصباً يَعلو على مقام الشاه وكلِّ المناصب الأخرى، لم يَحدث قطُّ أن فقيهاً

(١) يعدُّ علي بن عبدالعال الكركي، المعروف بالمحقق الكركي أو المحقق الثاني، أبرز المهاجرين العامليين إلى إيران؛ حيث هاجر في السنوات الأولى لتأسيس الدولة الصفوية، وتبوأ فيها منزلة لا تدانيها منزلة، ووكله الشاه إسماعيل بوظائف كثيرة وجعل له مرتباً سنوياً كبيراً ليصرفه في تحصيل العلوم، ويفرقه بين الطلاب والمشتغلين بالعلم، كما كان معظماً مبجلاً في جميع أرجاء بلاد إيران، نافذ الكلمة مطاعاً، وعينه الشاه حاكماً في الأمور الشرعية في عموم البلاد، وأعطاه فرماناً ملكياً بذلك، وقد بلغ شأنه في تحديد الوظائف والمراتب، حتى قيل: إن كل من يعزله الشيخ الكركي لا يُعيّن ثانية، وإن كل من ينصبه الشيخ لا يعزل بالمرة، وهو التسجيل الأول لشكل الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم، حيث الولي الفقيه أعلى مقاماً من رئيس الجمهورية. (راجع: حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث/ مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة/١٩٩٢م).

من فقهاء الشيعة رشّح نفسه للحكم مباشرة، فرَسَّخَ بتلك الحركة الذكية عُرفاً قومياً، ونهجاً سياسياً للعجم، أوقف به التنافس على زعامة القبيلة «الآق قيونلي» التي ينتمي إليها، كما أوقف ثقافة استلاب الحكم بالانتصارات العسكرية المنتشرة بين قبائل «الغزاة التركمان»؛ ولتدعيم أركان هذا العُرف وترسيخ نهجه في الأمة الفارسية كلها انقلبت إمبراطوريتُه إلى إستراتيجية القوة في الدعوة إلى التشييع الديموغرافي وفرض وجودٍ مذهبي على حساب المذاهب الأخرى المنتشرة في أرجاء فارس آنذاك، وبقيت هذه المنهجية حتى بعد عملية اختطاف المرجعية العربية في النجف، وإعادة تأهيل الفكر والمجتمع الشيعي فارسياً.

والحقيقة أن هذه الإستراتيجية التي وضعت المنصب الديني في رتبة متقدمة على المنصب السياسي، هي التي ضمنت استمرارية أجندة التشيُّع بصِيغته الفارسية الصفوية، فتعاقبت الحكومات السياسية - يميناً ويساراً - بروحها؛ إذ السلطة الفعلية على الضمير الجماعي للشيعة الفرس بيد مؤسسة المرجع الأعلى؛ التي تتخذ من قُم عاصمة لها، وهي الإستراتيجية التي أتت حديثاً بالثورة الخمينية إلى سدة الحكم وإعادة الصفوية الجديدة بعد قرون مضت.[١]

---

(١) على الرغم من أن الدولتين الصفوية والعثمانية تعتمد نظام التصوُّف في بناء مؤسستيهما الدينية، إلا أن الدولة العثمانية عكست فعل الدولة الصفوية، بتقديم منصب السياسة على الدين؛ فأصبحت رهينة قوتها السياسية الخاضعة لعوامل التصارع الداخلي والخارجي، لا قوة الأيديولوجيا برصيدها الشعبي الأعم، ولذلك أسباب شرعية معلومة في كتب الفقه والسياسة الشرعية؛ لكن يتساءل الباحث كيف سيكون الوضع على المسرح الدولي اليوم لو أن العثمانيين استنسخوا عبقرية إسماعيل شاه في تثبيت الأيديولوجيا بدل السلطان؟

الجمهورية الإسلامية الصفوية

ترى إيران أن لها دوراً محورياً اليوم في «ملء فراغ» الساحة الخليج العربية سياسياً وعسكرياً، لكنها تختلف عن غيرها (= القومية) بامتلاكها مشروعاً عقائدياً عالمياً، يحمل تفويضاً أخلاقياً يسمح لها بالتمدد الجغرافي أكثر من أي وقت مَضى؛ ذلك لغرض إقامة خلافةٍ جاهزة لَمقدَم «الغائب الحجة» -بعد سقوط حاجز صد صدام حُسين العُرُوبي البعثي-عبر أيديولوجيا «ولاية الفقيه»، بدعوى نيابة الإمام المهدي في عصر الغيبة الكبرى.[1]

لقد وظّفت الجمهورية الإسلامية الإيرانية فكرة «ولاية الفقيه» في بناء سلطتين متوازيتين في حكم البلاد، واستنسخت إرث الدولة الصفوية فكرياً ومُؤسَّسياً، هما سلطة «الثورة» وسلطة «الدولة»؛ إذ تأتي في القمة سلطة الثورة الدينية في منصب المرشد الديني الأعلى (ويشغله حالياً السيد علي خامنئي)، التي كان يمثلها الشيخ علي الكركي العاملي، وبعدها سلطة الدولة المدنية في منصب رئيس الجمهورية (يشغله محمود أحمدي نجاد حالياً)، التي

---

(١) هذه الفكرة بالمعنى الدقيق فكرة "حُلولية" دخلت الفكر الإسلامي من الفكر المسيحي القائل بأن الله تجسّد في المسيح، والمسيح تجسّد في الحَبر الأعظم، وفي عصر محاكم التفتيش في أسبانيا وإيطاليا وقِسم من فرنسا، كان البابا يحكم المسيحيين وغيرهم باسم السلطة الإلهية المطلقة، حيث كان يأمر بالإعدام والحرق والسجن، وكان حراسه يدخلون البيوت الآمنة ليل نهار ليعيثوا في أهلها فساداً ونُكراً، ونقل موسى الموسوي أن هذه البدعة أنكرها كثير من أعلام الشيعة على اعتبار أن "الولاية خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلّم والأئمة الاثني عشر من بَعدُ، ولا تنتقل إلى نواب الإمام، وأن ولاية الفقيه لا تعني أكثر من ولاية القاضي الذي يستطيع تعيين أمين على وَقفٍ لا متولى له أو نَصبِ قَيِّم على مجنون أو قاصر". الشيعة والتصحيح/٩٤

كان يمثلها الشاه عباس، ويسري هذا النظام على جميع مؤسسات الحُكم[1]؛ وعلى هذه القاعدة تجيد إيران الانتقال السريع ما بين الديني (= الثورة) والسياسي (= الدولة) بأسلوب مُحترف، واضعة المصالح المذهبية والشعوبية فوق أي اعتبار، فيَعملون في الموقعَيْن: موقع الثورة (= المرجع الأعلى) وموقع الدولة (= الرئيس)، ويتم تبادل الأدوار والمسؤوليات في كل القضايا السياسية والدينية بشكل يَصعب معه معرفة من يأتي قبل الآخر، وهي في النهاية ازدواجية في المَسكِ بزمامي الحُكم الإلهي المطلق والحكم السياسي المطلق في كل ما يخص الشعب الإيراني، بل الجماهير الشيعية التابعة لهذا النظام في مختلف بلدان العالم.[2]

ويجب ألا يغيب مَلحظٌ مُهمٌ في دراسة العلاقةِ العربية الإيرانية على ضفتي بحر الخليج العربي، وهي أن الدول التي تعاقبت على إرث دولة «الآق قيونلي» الصفوية - الأفشارية[3] (١٧٣٦-١٧٩٦م) والقاجارية[4] (١٧٩٦-١٩٢٥م) والبهلوية[5] (١٩٢٥-١٩٧٩م)- لم تكن استثناءً من الأجندة

---

(١) مثال: سلطة المجلس البرلماني مقابل سلطة مجلس تشخيص مصلحة النظام، وسلطة الجيش بمقابل سلطة الحرس الثوري.. وهكذا.

(٢) للتوسع في فهم هذه الأيديولوجيا السياسية تنظر كتابات: أحمد الكاتب، وصباح الموسوي، وعادل رؤوف، وسميرة رجب.

(٣) قبيلة تركمانية كانت تقطن شمال شرقي الأناضول، ثم دخلت كفصيل مهم في الجيش الصفوي، الذي يتحدر هو أيضاً من أصول تركمانية.

(٤) ينحدر القاجار من إحدى قبائل القزلباش البدوية التركمانية أيضاً، استطاع قائد القبيلة آغا محمد خان (١١٩٣-١٢١١هـ/١٧٧٩-١٧٩٧م) أن يستولي على الحكم في بلاد فارس، وقضى على الأفشاريين في مشهد سنة ١٧٩٦م.

(٥) قامت ثورة شعبية في طهران بسبب دخول القوات الكازاخية الموالية للشاه (أحمد ميرزا ١٩٠٩-١٩٢٥م) إلى مبنى البرلمان، وقت كانت بلاد فارس منذ ١٩١٩ تحت

«الصفوية» الرامية إلى ترسيخ نفوذها وخدمة إستراتيجيتها العسكرية وإثبات تفوقها على دول المنطقة؛ لثلاثة عوامل أساسية:

أولها: أن الدول التي ورثت الحكم الصفوي كان بمثابة إعادة تَمَوضُع للقوى في مؤسسة الحكم الإيراني، فالأفشاريون والقاجاريون -وكذلك الآق قيونليون- هم قبائل من الغزاة التركمان، وقد أسسوا مملكة عريضة مهابة طيلة قرون، وسيكون من الصعب أن تذهب تضحياتهم سُدًى بعد ما تحضروا وبنوا لهم مجداً تليداً ينافس مجد إمبراطورية التركمان العثمانية، صاحبة الخلافة على الأمة الإسلامية.(١)

أما العامل الآخر فهو النزعة الشُّعوبية الاستعلائية المتأصلة عند العجم ضد العرب(٢)، والعامل الثالث الأيديولوجيا الوظيفية

الوصاية البريطانية؛ وزامن ذلك ثورات شعبية في الجنوب قادها رجال الدين من الشيعة، وفي ١٩٢٥م أعلن رئيس الوزراء (رضا بهلوي) خلع الشاه، وتنصيب نفسه شاهاً على فارس ليبدأ حكم سلالته التي لم تُعمّر بعدَ ابنه محمد الذي خلعته الثورة الخمينية – بتحالف رجال الدين مع البازاريين (= التجار) نهاية سبعينيات القرن الماضي.

(١) يلاحظ أن عشيرة الآق قيونلي والأفشار والقاجار، كلها تتحدر من أصول تركمانية لها ارتباط إثني عشائري بالعثمانيين التركمان الذين يتحدرون من عشيرة قايي، وهي من الأتراك الأوغوز، ومن هنا يلاحظ أن جزءاً كبيراً من دوافع الاقتتال الصفوي العثماني له مُحفّزات إثنية وقبلية، عَملَ المذهب المُغاير على إذكائها عسكرياً وشعوبياً فقط، وليس على مستوى مؤسسة الحكم فيما يَظهر للباحث.

(٢) الحقيقة أن العثمانيين التركمان شاركوا الصفويين في هذه النزعة الشعوبية في أواخر عهدهم، حيث كانوا بنظرون إلى العرب نظرة دونية، أثرت سلباً على مقام الخلافة، التي هي أساس وحدة الأمة الإسلامية وعزها، وخاصة في المائة الأخيرة

المتمثلة بمذهب «ولاية الفقيه» الشيعية كعقيدة وظيفية ممَهّدة لمقدم المهدي، وإن كان هذا العامل يخضع لدرجة تَدَيُّن مؤسسة الحكم بالدرجة الأولى، ومدى استشعارها بالحاجة للدين لتدعيم أركان ملكها؛ فحكم نادر شاه –مثلا- لم يكن مَعنيا بنشر المذهب الشيعي بالرؤية الصفوية في المقام الأول بقدر بسطه النفوذ البحري على الخليج العربي، وهي نقطة ضعف الإمبراطورية الصفوية منذ تأسيسها، فاستفتح حُكمه[1] بطلب سفينتين حربيتين من الشركتين الهولندية والإنجليزية صالحتين من «بندر عباس» لتأسيس أسطوله البحري، وبسط سيطرته على سواحل بلاد فارس الشمالية والجنوبية والهيمنة على القبائل العربية في كلا الساحلين الشرقي والغربي، وتحقيق سياسة التوسع في بلدان الخليج العربي باحتلال كلٍّ من عُمان والبحرين والبصرة، وقد وافق الهولنديون على طلبه لأهداف عجزَ الهولنديون من تحقيقها وَحدَهم في جزر

من الخلافة؛ فكانت شعوبية العثمانيين فجوة استغلها الاستعمار العالمي، ودفعوا القيادات الطامحة للملك للدعوة إلى إعادة الخلافة للعرب، فكانت ثورة الشريف حسين، وما تبعها من مشروع تقسيم تركة دولة الخلافة في خطة سايكس بيكو الشهيرة في تاريخ المنطقة المعاصر؛ إلا أن العثمانيين لم يكونوا يؤسسون لهذا المبدأ في ثقافتهم الأدبية، بل هي أعمالهم وأخلاقهم التي تأثرت بالملك الطويل على العرب وغيرهم، بخلاف التركمان الفرس الذي ثقفنوا المسألة الشعوبية، وغلفوها بالتشيُّع المتطرف، وهو فكر إقصائي واحديٌّ لا يقبل التعددية المذهبية، فتغلفت الشعوبية الفارسية بالدين المتشيع الإقصائي، فبرر المذهب أخلاق الاستعلاء الشعوبي.

(١) استمر حكم نادر شاه بن طهماسب الأفشاري مدة ١١ عاما فقط (١١٤٨-١١٥٩هـ/١٧٣٦-١٧٤٧م)، لكن حضوره التاريخي كان بارزا لطموحه المتوثب لإعادة أمجاد الدولة الصفوية، وهذا يُفسر بروز اسم نادر شاه في أغلب الدراسات التاريخية التي تُعنى بتاريخ الخليج العربي الحديث.

الخليج العربي على الضفة الغربية.[١]

وعلى الرغم من أن الدولة البهلوية كانت علمانية تَحَرُرية، لكنها وظّفت الدينَ لمراميها السياسية وأهدافها الشعوبية؛ إذ كان الموقف التقليدي لسياسة إيران مَطلع القرن العشرين[٢]، وخاصة مرحلة محمد -كدولة شيعية وريثة للدولة القاجارية- مقاومة أي دولة عربية تتخذ من توحيد الساحل العربي هدفا لها، سواء كان ذلك في حدود بحر الخليج العربي أو أي دولة من دول الجوار.

الاختلاف الوحيد والبارز الذي حصل في تلك الفترة هي اختلاف المنطق الكلاسيكي الفارسي بشأن الإرث التاريخي مع دول المنطقة، والحقوق القانونية المكتسبة، وإن كانت تُصدر بين الفينة والأخرى في بعض الخطابات السياسية كتكتيك سياسي، وتلويح بالعصا -إن لم تنفع الجزرة مع دول المنطقة- كالادعاء بأحقيتها في

(١) حفلت الوثائق الهولندية بأنباء المساعدات التي قدمت لنادر شاه من قبل الهولنديين، فوُجد عقد بين حاكم إقليم "فارستان" وممثل شركة الهند الشرقية الهولندية ينص على أن "تضع الشركة كامل أسطولها تحت تصرف نادر شاه، على أن تكون الحكومة نادر شاه الأفشارية مسؤولة عن أي دمار تتعرض له سفن الأسطول، وأن يعمل الأسطول الهولندي على تعقب السفن العربية مقابل أن يجد الهولنديون تأييداً من قبل الحكومة للعمليات العسكرية التي يقومون بها ضد الدول المناوئة لهم في الخليج العربي، وبالفعل اشترك الفرس والهولنديون في محاولات ضرب الأسطول العماني وأسطول القواسم لكن محاولاتهم باءت بالفشل (١١٥٢هـ/١٧٤٠م)؛ نظراً لبسالة طاقم الأسطولَين، وثورة العرب الذين استخدمهم الأسطول الفارسي على قائد الأسطول، وانقلابهم عليه لأنه تحالف مع الصليبيين ضد العرب المسلمين. (محمود شاكر: موسوعة تاريخ الخليج العربي، ١/٢٣٣ /دار أسامة للنشر والتوزيع- الأردن/٢٠٠٣).

(٢) استمر الحكم البهلوي من عام ١٩٢٥-١٩٧٩، تحت مسمى "المملكة الفارسية"، التي قضت عليها الثورة الخمينية.

إمارة البحرين السُّنية.(١)


الشاه محمد رضا بهلوي

وقد أعطى إعلان الانسحاب البريطاني (يناير ١٩٦٨م) من الخليج العربي الفرصة الذهبية للشاه للعب دور شرطي المنطقة؛ لملء الفراغ الذي سيُحدثه البريطانيون، وتسويقِ نفسه على أنه الضامن الحقيقي لأمن منابع النفط التي أصبحت تشكّل ثقلا واضحا لدى القوّتين العالميتين (أمريكا وروسيا)، إلى جانب أمن إسرائيل، التي كانت تخوض صراع وجود مع الجمهوريات الثورية العروبية، وقد اتخذت بسبيل فرض الأمر الواقع تحركات عسكرية في بحر الخليج العربي، أثمرت عن احتلال بعض الجزر الراقدة قبالة ساحل الإمارات المتصالحة: طُنبُ الكبرى والصغرى وأبو موسى.(٢)

---

(١) يؤرخ بعض الباحثين بداية الادعاءات الإيرانية في البحرين على المستوى الدولي منذ (١٢٣٧هـ/١٨٢٢م)، عندما اعترضت فارس رسمياً للمقيم البريطاني في بوشهر على عقد بريطانيا سلسلة اتفاقيات مع حاكم البحرين من آل خليفة؛ بحكم أن البحرين تابعة لفارس، ثم طالبت إيران بنفوذها السياسي على البحرين رسميا من الحكومة البريطانية، فرد وزير الخارجية البريطاني آنذاك (أبردين) بنفي أي أحقية لفارس على الأرخبيل، فأجابه رئيس وزراء إيران (حلنجي ميرزا) بمذكرة أوردناها سلفاً، وتتباعت من بعده المطالبات على هذا النهج: أحقية فارس ثم إيران التاريخية والسياسية على بحر الخليج العربي كله. (راجع: محمد سرور زين العابدين: أأيقاظ قومي أم نيام/ دار الجابرية، لندن/٢٠٠٧م).

(٢) أمل إبراهيم الزياني: علاقات المملكة العربية السعودية في النطاق الإقليمي، دراسة العلاقات السعودية الإيرانية وتطور موضوع الأمن في الخليج العربي/


زعيم الثورة الإيرانية آية الله الخميني

الحقيقة الظاهرة اليوم أنه لم يكن في وارد جمهورية الثورة الإيرانية إعادة الحقوق إلى أصحابها، أو إقامة وحدة إسلامية بالمفهوم الكلاسيكي الذي يَحتضن الأمة كلها دون تمييز، بل رسَّخت الثورةُ الخمينية[1] المبدأ الشعوبي في المنطقة، وصنعت بنفسها ظاهرةَ التَّخندُق الطائفي

مطبعة دار التأليف/ ١٩٨٩م، والبحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، الفصل الثاني (ص١٣١- ١٧٧)/ ١٩٩٤م.

(١) الخميني نسبة لمدينة "خُمين" الصغيرة، التي تقع في الجنوب الغربي، على بعد ١٣٥ ميلاً من أصفهان، واسمه مصطفى بن أحمد الموسوي (ولد في ٢٢ سبتمبر ١٩٠٢ – وتوفي في ٣ يونيو ١٩٨٩)، لقبه الرسمي بعد الثورة "آية الله العظمى"، ويعدُّه البعض من أكثر الرجال تأثيراً في القرن العشرين، ووسمته مجلة التايم برجل العام للعام ١٩٧٩، ترجع أصوله إلى مدينة كينتور بالهند، وعائلته تنتمي إلى أشراف مدينة نيسابور، التي تزعم أنها تتحدر من سلالة موسى الكاظم (الإمام السابع من الإثنا عشرية)، اعتقد فيه بعض الإيرانيين أنه الإمام الثاني عشر المنتظر "المهدي" وقد ظهر بعد احتجابه، وخاصة أن مولده يتزامن مع تاريخ ميلاد الزهراء فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، وألصق به لقب إمام لأول مرة الشاعر نعمت ميرزا زاده عام ١٩٦٤، غير أنه لم يُنادَى به إلا عام ١٩٧٧م بعد عودته إلى إيران قبيل الثورة، عندما أصبحت الحاجة ملحة لإعطائه لقب بديل عن "آية الله". (حامد ألجار: إيران والانقلاب الإسلامي، ص٢١٥/ طهران/ ١٩٨١م؛ وإدموند بيرك: الإسلام والسياسة والحركات الاجتماعية، ص٤١٣/ ترجمة محروس سليمان، مكتبة مدبولي- القاهرة/١٩٩٩م).

المعاصر، وأكسبت نفسَها حقَّ الاحتفاظ بالإرث البهلوي، الذي ثار عليه الملالي أنفسهم بالتحالف مع البازاريين (=التجار)، وهي اليوم تبني على مكاسبه السياسية، بعد أن تواءمت مع تلك الحِقَب المتتالية من الإرث التركماني، وأعادت تشكيله ليصبح «ظاهرةً صفوية» جديدة يُعاد بَعثها.

إن الأبعاد الإستراتيجية للسياسة الإيرانية في المنطقة تتكشف بمعرفة مُحدداتها العقائدية والتاريخية والمصلحية، فالانتقائية أو التفرد بفهم بُعدٍ دون آخر كفيلٌ بإنقاص استيعاب الفهم الشمولي للمسألة الفارسية وأطماعها في الهيمنة على المنطقة.

* * *

أولا: البُعد الإستراتيجي العقائدي

عند الدراسة المتعمقة لعقيدة المذهب الصفوي الشيعي يلاحَظ الميل إلى «القَدَريّة»(١)، التي تؤمن بأن القَدَرَ ما هو إلا صناعةُ الإنسان، الأمر الذي يُحدد النظرةَ لله وللكون، فهو (= الله) لا يقبلُ مُجرَّد النطق بالشهادتين والاعتقاد بإله واحد لا شريك له، بل لا بد من آل بيت النبوة كأولياء، ومن ثم فكلُّ ما هو مُهمٌّ عنده يَتَمَحوَر

(١) يرى أصحاب هذا الاعتقاد أن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله، حتى عُرف عن بعض غُلاتهم نفي علم الله أو قدرته على خلق أفعال العباد، فاشتُهر عن بعضهم (= معبد بن خالد الجهني) القول: "لا قَدَرَ والأَمرُ أُنُفٌ"؛ ليخرج بهذا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاّق سبحانه، وأن علمه تعالى يأتي بعد وقوع الفعل، فيُستأنفُ القَدَرُ بعد العلم، وهذا ما يجعل الإنسان خالقا لفعله، وقد ناقش بعض المؤرخين سبب تسميتهم بـ"القدرية" على الرغم من إنكارهم "القدر" الذي هو ركن من أركان الإيمان، فقال قوم: إنهم نَفَوا القدر عن الخالق وأثبتوه للمخلوق؛ إذ جعلوا كل شيء لإرادة الإنسان وقدرته، فكأنما أعطوا الإنسان سلطانا على القدر، ويميل البعض إلى أن هذا الوصف ذكرهم به مخالفوهم لينطبق عليهم الأثر: "القدرية مجوس هذه الأمة"، ويعلل الشيخ مصطفى صبري (كبير علماء الدولة العثمانية) ذلك لمقاربته رأي القدرية لبعض عقائد المجوس، الذين ينسبون الخير إلى الإله والشر إلى الشيطان؛ لأن الإله لا يريد الشر بعباده. (للتوسع ينظر: محمد أبوزهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية/ دار الفكر العربي – القاهر/ ١٩٩٦م).

وتُعد مسألة "القدرية السياسية" قاسما مشتركا بين صنّاع الحدث الدولي في منطقة ما يُعرف بالشرق الأوسط، فالأمريكان البروتستانت واليهود المتصهينون، إضافة إلى أتباع مذهب "ولاية الفقيه" الصفوية، يؤمنون بأن القدر لا يتحرك من نفسه، ولا بد من تحرك المؤمنين بقدوم "المخلص/الماشيح/الغائب" للتمهيد لمقدمه ليقودهم إلى النصر والتمكين، وبسط دولتهم على العالم كله من ثَمَّ.

حَول «آل البيت» في البدء والختام، وبحُكم أن البداية كان ظالمة لآل البيت، إذن يُحتّم المنطق «القَدَري» أن تكون النهاية عادلة لهم، ويتجسد ذلك في دولة «الغائب» المنتظر، التي ستُغيّر موازين القوى لصالح الخير، وتهزم كل الشر، المُتَمظهر في اليهود و«النَّوَاصِب»(١)، وبهذا يُمكن فهمُ هذا البُعد في إطاره السياسي، الذي يُمكن أن نُطلقَ عليه «العقيدة الوظيفية»؛ إذ تراها ترتكز على أسطورتَي مقتل الإمام الحسين وخروج المهدي المنتظر.(٢)

---

(١) النَّصب لغة: إقامة الشيء ورَفعه، ومنه ناصِبَةُ الشرِّ والحرب (مختار الصحاح= مادة: نصب)، وفي القاموس للفيروز آبادي: "النواصب والناصبة، وأهل النَّصب المتدينون ببُغض علي؛ لأنهم نصبوا له، أي عادَوه".

و"النواصب" مصطلح يطلق في الأصل على من يعادون علي بن أبي طالب وأهل بيته رضوان الله عليهم، ويؤذونهم بالقول أو الفعل، وقد اتفق أهل السنة والجماعة الإثنا عشرية على أن النواصب تقول بفسق علي بن أبي طالب، ولكنها لا تقول بكفره كالخوارج؛ ثم وسع الإثنا عشرية المصطلح ليشمل كل من يَعُدُّونه هم معادٍ لعلي بن أبي طالب أو لأهل بيته، أو معاد/ مخالف لأتباع الإثنا عشرية (١١)، سواء كانوا من النواصب (الذين يعتقدون بفسق علي بن أبي طالب) أو من الخوارج (الذين يعتقدون بكفر علي بن أبي طالب) أو من أبناء العامة (السنة والجماعة)، وهذا واضح في وقتنا المعاصر في جملة الخطابات الدينية والشعائر الحسينية التي تزخر بها منطقة الخليج العربي، فكل من يعادي الآيات والملالي يُصنف على أنه "ناصبي" دون ضابط أو مقياس حاكم. (الباحث).

(٢) كان الخلاف محتدما بين المدرسة الشيعية الأصولية ونظيرتها الأخبارية حتى كُتبت الغلبة للأصولية مطلع القرن الثامن عشر؛ والخلاصة: أن الشيعة الأخبارية ادَّعت أن المؤمن لا يستطيع أن يفهم القرآن والحديث (=النبي والأئمة) وليس في حاجة إلى اتباع إرشادات المجتهدين، وكل ما عليه هو التقليد والمتابعة، وهذا يقتضي توارث حق الاجتهاد، وعدم توسيع دائرته لبروز مجتهدين جدد.

وعلى العكس تماما كانت المدرسة الشيعية الأصولية، التي ترى أنه على الرغم من أن أسس الإيمان وردت في القرآن والأحاديث، لكن المؤمنين بحاجة للمجتهدين المتعلمين ليفسروا لهم العقيدة، وتطورت المدرستان، وخاصة العقيدة الأصولية

في الركيزة الأولى يجتمع التيار الفارسي الصفوي (الأصولي) مع التيار العربي (الأخباري) في إبقاء جذوة «أسطورة» مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه كمادة تحشيد اجتماعية، بغرض استنزاف العاطفة الجماعية، لكنهما يختلفان في منهجية التوظيف؛ إذ تكتفي المدرسة الثانية (الأخبارية) بإبقاء العاطفة، وتتقدم عليها الأولى (الأصولية) بتوظيفها في أجندة سياسية أيديولوجية، في مُقاربة مَلحَمية من «آلام المسيح» أو «الهولوكوست» اليهودي، تُغذّي الضميرَ الجماعيَ نحو هدفٍ مُوحَّد؛ فيظهر جلياً أن جوهر الشعائر السنوية الحُسينية هو صناعة «العدو» (الخصم/الآخر/الناصبي) الظالم اللَّعين؛ فتلتهبُ مشاعر الشيعة حُزناً على «البطل الضحية»، الذي ضحَّى مُختاراً بنفسه لأجل شيعته، ومن ثمَّ يَعِدُ بالجنة كلَّ من بكى عليه وتألم لأجله، أو دعا -لنفسه وذريته من بعده- بأن يكون من الجنود الذين ينتقمون من «الآخر» تحت راية المُنتَقِم المنتظر «المهدي»؛ الذي هو القائد الأعلى للقوات المسلحة؛ فيُحيي قَتَلةَ الحسين من مراقدهم، ويقتل العربَ ويصُلبُ الخونة الأوائل (= الصحابة) وأبناءَ العرب!!

لقد أخذت هذه الأساطير والقصص والرؤى تُغذي العقلَ الشيعي -عبر أجيال- بكراهية قاتل الحسين بن علي، وظلَّ الضمير

على يد مرتضى الأنصاري: مرجع التقليد منتصف القرن التاسع عشر، الذي حكم بالوجوب على كل مؤمن اتباع تعاليم أحد "المجتهدين" الأحياء، ومتى وجد مجتهد رئيس واحد، فإن تعاليمه تحظى بالأولوية على تعاليم المجتهدين الآخرين، حتى أصبح "المجتهدون" مؤهلين لتفسير وصية الإمام الغائب المعصوم؛ وتمتع العلماء المجتهدون بنفوذ اجتماعي واقتصادي وسياسي يفوق الحاكم السياسي، وخاصة فترة حكم أسرة القاجار (١٧٩٦-١٩٢٥). (نيكي كيدي: الثورات الإيرانية من منظور مقارن، ص ٤٧١/مكتبة مدبولي- القاهرة/١٩٩٩)

الشيعي يتغذى بالانتقام والكراهية كُلما مرَّ به طيفُ الحسين صَريعاً في كربلاء، مقطوعَ الرأس قتيلَ الأبناء، فتَنضَحُ المشاعر بـ «آلام عاشوراء» المُصطَنعة؛ إذ ليس هدفُ الصُنّاع الكبار لهذه الملحمة التكفيرَ عن خيانةِ الحسين أو جمعَ شتات الأمة من بعده، كما نهج إمامهم الثاني أخوه الحسن رضوان الله عليهما، الذي حقن حمَّام الدم المتدفق من أرض الفتن والشقاق (= العراق).[1]



التنشئة على البحث عن العدو

جعل الفرس الصفويون التركيز على المسائل الخلافية أحدَ أهم المناهج التربوية لمذهبهم الأيديولوجي، فعملوا على إظهار أهل السُنة بمظهر المعادي لآل البيت وإطلاق تسميات «النواصب» و«المُعادون» و«الوهابيون» (بعد المرحلة السعودية)،

(١) نقرأ في سيرة الإمام الحسين (رضي لله عنه) أنه كان يبكي يوم كربلاء حزناً على قاتليه الذين سوف يدخلون النار بسببه، وهذا قمة خُلُق وإنسانية آل بيت النبوة؛ في وقت يجعل مدعيّ حُب الحسين ذكرى مقتله وسيلةً بغضاء وعداوة بين المسلمين المحبين للحسين؟!، إن الأمرُ له وجهُ آخر يَختفي ويُعلن بحسب الظروف الزمانية أو المكانية، والمتأمل في تاريخ المسيرات اللطمية عبر التاريخ الإسلامي، يَجدُ أنها تُغذّي الكراهية والحقد بين المسلمين، فما كان يحصل بين السنة والشيعة منذ عام ٣٣٨ في بغداد، وما تلاه من أعوام متفرقة من القرن الخامس والسادس (يراجع تاريخ الذهبي وابن كثير في حوادث السنوات: ٤٠٦/٤٠٨/٤٢١/٤٢٢/٤٢٥/٤٣٩/٤٤٣/٤٤٤/٤٤٧/٤٨٢/٥١٠)، ومن ثم القرون التالية وإلى الوقت الحالي، والتاريخ أكبر دليل على أن هذه المسيرات معوَلُ هدم لوحدة الأمة؛ وهي (=الأمة) تسأل حين تسمع سنوياً شعار "يا لثارات الحسين" : ممَّن ستكون ثارات الحسين وقد انقضى زمن الأمويين؟؟

فيَتَغَذّى بها الشيعيُّ منذ نعومةِ أظافره، فينشأ مُقتنعا أن السُّنيَّ هو عَدُوُّه الأول، من خلال استماعه للخطب واللطميات، التي أصبحت على هيئة أناشيد تصدح في آذانهم صباح مساء خلال مناشط حياتهم، والتي تُقدَّم له في المناسبات المتعددة التي ابتدعها الصفويون لنشر ثقافتهم وترسيخها في أذهان الأتباع، فعلى الرغم من اختلاف هذه المناسبات إلا أن الخطابَ فيهن واحدٌ[1]، لا يُتلى فيها قرآن ولا يُقرأ خلالها حديث، ولا تُبرز عظمة الحضارة الإسلامية التي أنارت عقول العالم.[2]

ولبقاء جذوة الأسطورة مشتعلة على مدار العام قسَّموا المناسبات إلى شقين: الأول للأفراح، والآخر للأحزان، فأما

---

(١) قائم على سَبِّ العرب، والمسلمين وتكفير ولعن الصحابة بدعوى تحريفهم للوصية بالخلافة، وسُكُوتهم على مقتل أئمة الشيعة على يد الخلفاء الأمويين والعباسيين.

(٢) ومن المفارقات أن واقعة كربلاء لم يُؤرخها الشيعة، حيث لم يكن آنذاك طائفة تُعرف بهذا الاسم، وإنما أرَّخها علماء أهل السنة والجماعة الكبار من أمثال ابن جرير الطبري -السني لا الشيعي- وابن كثير والذهبي وغيره، ولو لم يكن هؤلاء العلماء مُحبّين للحسين لما دونوا مأساته وأعدوا لها فصولاً في كتبهم، كما أن الملفت للنظر أنه في الأيام العاشورائية يُكثر الشيعة من قول "هيهات منا الذلة" المنسوب للحسين (رضوان الله عليه)، ويجعلونه في مقدمة الشعارات التي ترفع في هذه المناسبة، بمعنى عدم الرضوخ والذلة للغازي والمحتل والظالم للمسلمين، إلا أن هذا الشعار أصبح لا معنى له اليوم، فالغزاة يسرحون ويمرحون في ديار الإسلام، وهذه أضرحة آل بيت النبوة وحوزة النجف العلمية التي تتزعم مرجعيتها الشيعة في العالم وتسير مواكب اللطم وشق الرؤوس، نراها تُحاط بدبابات الغزاة الصليبيين الذين انتهكوا حرمة المقدسات الشيعية في العراق قبل غيرها، فأين إذن شعار "هيهات منا الذلة" وقد قبَّلت العمائم رأس ويد الجندي الأمريكي، وتحالفت معه لاحتلال مقر خلافة الإمام علي، ومكان واقعة كربلاء التي انطلقت منها كلمة ابنه الحسين (رضي الله عنهما) "هيهات منا الذلة"؟

مناسبات الفرح فأبرزها «عيد الغدير»[١]، وهي مناسبةُ تنصيب علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) خليفةً على المسلمين من بَعدِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الرواية الشيعية؛ أما المناسبة الأخرى فهي «فرحة الزهراء»، في يوم مقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) على يد فيروز أبو لؤلوة المجوسي[٢]، إضافة إلى أعياد مواليد الأئمة الإثنا عشر على مدار العام.

أما المناسبات الحزينة فمن أهمها عَشَرَةُ عاشوراء: الحكايةُ الملحميةُ لمقتل الإمام الحسين في وقعة كربلاء، ووفاةُ بنت رسول الله وزوج علي بن أبي طالب السيدة فاطمة الزهراء (رضوان الله عليهما)، وهي قصة ملحمية أخرى، إضافة إلى وفياتِ الأئمة الإثنا عشر على مدار السنة.[٣]

هذه هي الركيزة الأولى في هذا البعد العقائدي الوظيفي، وتكمِّلها ركيزةٌ لا تقل عنها أهمية وهي عقيدة خروج «المهدي المنتظر»، وتختلف المدرستان الجعفريتان «الأصولية» و«الإخبارية» أيضا في توظيف هذه العقيدة؛ إذ ترى المدرسة «الإخبارية» ضرورةَ

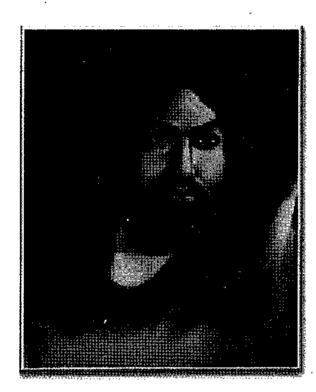
---

(١) نسبة إلى موقع غدير خُم: مَحَطّ رِحَال الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من حجة الوداع.

(٢) من المفارقات أن سيدة نساء الجنة فاطمة الزهراء رضي الله عنها توفيت قبل عمر بن الخطاب بأربعة عشر عاماً، فقد توفيت بعد أبيها بستة أشهر (١١)، ولأبي لؤلؤة المجوسي مقام يزار في إيران، ويطلقون عليه لقب: بابا شجاع.

(٣) لعب دورَ الشرير في ملحمة مقتل الحسين عبيدالله بن زيادُ بنُ أبيه وعمه يزيدُ بن معاوية، ولعب دور الشرير في وفاة فاطمة الزهراء عمر بن الخطاب، ومع كل إمام من أئمة آل البيت في المنظور الشيعي سيلعب خليفة من خلفاء الدولتين الأموية أو العباسية دور الشرير فيها، لتكتمل فصول الملحمة، وتكون الحاجة للمحاكمة الفاصلة بعد خروج المهدي، كما سيأتي.

انتظار خروج «المهدي»؛ لبدء التحرُّك، وأي تحرك قبله باطل، في حين ابتكرت «الأصولية» حُزمة إجراءات أيديولوجية وظيفية تساعدها على المُضيّ قُدُما في تهيّئةِ الظروف الملائمة لخروج «المهدي»؛ وبعبارة أدق: مُساعدة القدر لدفع المهدي للخروج من غيبته.



صورة متخيلة
للمهدي المنتظر

تَبَنَى عقيدة «المهدي المنتظر»[(١)] -في صورتها المُبسَّطة- على أصل «عقلي» مفادُه أنه لا بد من إمام يَخلُف النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة؛ تكون له صلاحية النبوة من طاعةٍ وتشريع؛ مُنصوصٌ عليه شرعا؛ فالإمامة عند الشيعة أمرٌ ربّاني نصَّت عليه النبوة، والخِيرَةُ وقعت على «علي بن أبي طالب» في خلافة مقام النبوة، ومن ثمَّ ساقوا الإمامة في ذريته، مُنتَقِلةً منه إلى ابنه الحَسَن فالحسين.

والواقع أن الإمامة انتقلت في ذرية الحسين فقط، وحتى الحَسَن العسكري (الإمام الحادي عشر)[(٢)]، الذي مات دون أن

---

(١) يختلف الشيعة أنفسهم في مسألة المهدي المنتظر اختلافاً بيّناً، ويبدأ الخلاف من سَنَة ميلاده، وكيفية حمله ووضعه، ومن هي أمه، وما اسمه وهل يُسَمَّى يعني هل يجهر بذكر اسمه أو لا، وكيف نشأ، وموطن اختفائه وإقامته، وكم عمره عند خروجه وهيئته التي سيخرج عليها، ومدة حكمه بعد خروجه، بل في شخصه هل هو ناسوت أم لاهوت (=إنسان كامل أم إنسان حل فيه الإله)، كما أنهم يختلفون في مدة غيبته وموعد ظهوره!! (يراجع: جواد علي: المهدي المنتظر؛ أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي)

(٢) أبو محمد الهاشمي؛ الحسن بن علي بن محمد بن علي الرضا بن موسى بن

يُعَقّبَ ولدا كما تذكر كتب التاريخ والتراجم[١]؛ فأدَّت وفاته دون أن يُعلِنَ عن وجود خلفٍ له، ووصيتُه بتركته إلى أُمِّه «حديث»، إلى "تفجير أزمة عنيفة في صفوف الشيعة الإمامية الموسوية، الذين كانوا يعتقدون بضرورة استمرار الإمامة الإلهية إلى يوم القيامة؛ وحدوث نوع من الشك والحيرة والغموض والتساؤل عن مصير الإمام بعد العسكري، وتفرقهم في الإجابة عن ذلك إلى أربع عشرة فرقة؛ كما يقول النوبختي في فرق الشيعة، وسعد بن عبدالله الأشعري القُمِّي في المقالات والفرق، ومحمد بن أبي زينب النعماني في الغيبة، والصدوق في إكمال الدين، والمفيد في الإرشاد، والطوسي في الغيبة، وغيرهم..."[٢]

وقد أورد بعض مؤرخي الشيعة أن جارية للحسن العسكري، تُسمى «صقيل» ادعت أنها حامل منه، فتوقفت قسمة الميراث؛ وحمل الخليفةُ العباسيُّ المعتمدُ الجاريةَ صقيل إلى داره، وأوعز إلى نسائه وخدمه، ونساء الواثق، ونساء القاضي ابن أبي الشوارب بتعهُّد أمرها والتأكد من حملها واستبرائها...، ولم يزل الذين وُكلوا

جعفر الصادق؛ ولقبه العسكري نسبة إلى المحلة التي سكنها بسامراء، والتي كانت تسمى العسكر؛ ولد من أَمَةٍ بالمدينة المنورة يوم ١٤ ربيع الثاني وقيل ١٠ من ربيع الآخر من سنة ٢٣٢ للهجرة، وتوفي -بعد عامين من وفاة أبيه- يوم الجمعة ٨ ربيع الأول سنة ٢٦٠ للهجرة؛ ودفن إلى جنب أبيه في سامراء وكان عمره يوم مات رحمه الله ٢٨ أو ٢٩ سنة، في خلافة أحمد بن جعفر المتوكل العباسي، الملقب بالمعتمد العباسي، الذي تتهمه المصادر الشيعية بأنه المسؤول عن دس السمِّ له.

(١) للتوسع راجع: رجال الطوسي/ ٤٢٧-٤٣٨؛ ومرآة الجنان ١٧٢/٢؛ وتاريخ بغداد برقم ٣٨٨٦؛ ووفيات الأعيان ٩٤/٢؛ ومقاتل الطالبيين/ ٤٦؛ وشذرات الذهب ١٤١/٢؛ والأئمة الإثنا عشر لابن طولون/١١٣

(٢) (أحمد الكاتب: تطوُّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه: ص١٦٥/ الدار العربية للعلوم-بيروت. ط٣/٢٠٠٥)

يحفظ الجارية ملازمين لها حتى تبيَّن لهم بطلان الحمل، فقُسِّم ميراث الحسن بين أُمِّه وأخيه جعفر.[١]

تفرقت على إثره هذه الهزة آراء الشيعة الإثنا عشرية، فرجع بعضهم إلى جماعة السُّنة، وزعم بعضهم أن للحسن العسكري ولداً أخفاه في سرداب، حتى استحكم هذا الرأي وتَقعَّدت أصوله في الأدبيات الشيعية اللاحقة؛ وعليه لا يَصِحُّ عند الشيعة -أصولية وإخبارية- إيمانُ المَرءِ، ما لم يُؤمن بتلك السلسلةِ من أوَّلها (= ولاية علي بن أبي طالب لشيعته) إلى آخرها (= عهد المهدي المنتظر المُخلِّص)، فالمسألة على هذا فاصلة بين الإيمان من عدمه، وقبول الأعمال الشرعية وردها، كما يؤمنون - تبعا لذلك - بما سيفعله «المهدي المنتظر» بعد خروجه وظهوره[٢]؛ ولهذا ابتدع الأصوليون

(١) الصدوق: إكمال الدين/٤٤؛ والطبري: دلائل الإمامة/ ٢٢٤ (نقلا عن أحمد الكاتب: مرجع سابق)؛ وتقول بعض الروايات: أن للحسن ولدا دخل السرداب ٢٦٠ هـ ولم يخرج حتى الآن، ويزعم آخرون أن المهدي يخرج بين الفينة والأخرى مترقبا يُطالع أحوال شيعته.

(٢) أوردت المصادر المعتمدة عند الشيعة الصورة النموذجية المتفق عليها عن دولة المهدي المنتظر، ووظيفته كخليفة أخير في سلالة بيت النبوة المعصومين على ما تقتضيه الرؤية الإثنا عشرية، فهي تتلخص فيما رواه المجلسي عن رواية المفضل بن عمر، الذي توجه إلى الإمام جعفر الصادق بأسئلة عن يوم القيامة وعلاماتها، والمهدي وعلامات ظهوره وتأسيس دولته، فأعلمه أن المهدي لم يكن حتى موت أبيه يرى غير أصدقائه والمؤمنين الصادقين، ولم يبق المهدي بسامراء حين اختفائه، بل انتقل إلى قصر صابر في المدينة، وبعد أن أقام هناك ست سنوات اختفى عام ٢٦٦هـ عن الأنظار كلها، وأصبح يعيش بعدها في الخفاء.

عندما يذهب المهدي من قصر صابر إلى مكة يلتقى هناك بالملكين جبرائيل وميكائيل، ويعلن عندئذ أنه جاء ليحكم العالم؛ وبعدها يندفع إليه الصحابة (٣١٣) مثل العدد الذي وقف إلى جانب النبي في معركة بدر، ويظهر كذلك الحسين بن علي شهيد كربلاء في الميدان مع (١٢٠٠٠) من المؤمنين، ويتردد

نداء المهدي في جميع أنحاء المعمورة فيجتمع الناس كلهم؛ فيأمر بهدم المسجد الحرام في مكة باستثناء أسسه التي شيدها إبراهيم وإسماعيل، وبعدها يأمر ببناء المسجد حسب الخطة القديمة التي أمر الله بها.

بعد أن يتولى المهدي الحكم في مكة ينتقل إلى فتح العالم، ثم ينتقل من مكة إلى المدينة لزيارة قبر جده النبي، وهناك يَدُله الناس على قبرَي الخليفتين الأولين إلى جانب قبر الرسول، فيأمر باستخراج الجُثتين وتعليقهما في شجرة يابسة، ولكن المَيّتَين سيكونان كما لو أنهما وُضعا في القبر الآن، وتخضرُّ الشجرةُ الميتة فجأة على نحو رائع، ويعتبر المشاهدون الحدثَ بمثابة معجزة كبرى، فتهتز عقيدتهم وتتزعزع؛ لكن آخرين يتمسكون بإيمانهم بعليٍّ ويرفضون معرفة أي شيء عن الخليفتين؛ وفي تلك اللحظة يأمرُ المهدي عاصفةً سوداء تقتلع كلَّ الذين آمنوا بمعجزة أبي بكر وعمر، كما تقتلع الأشجار فينقلبون ويموتون، وفي النهاية يؤخذ أبو بكر وعمر من الشجرة وُيبعثان إلى الحياة بإذن الله وعلى أبي بكر وعمر أن يتحملا مسؤولية ما فعلا مع علي وفاطمة، وفي تلك اللحظة تصعد النار من الأرض وتأكل الخليفتين، ولكن هذا ليس هو نهاية العقاب، وإنما سيأتي جميع الأئمة ويأخذون بثأرهم من عدويهم؛ سيبعثان إلى الحياة ألف مرة كل ليلة ويعاقبان عقاب ميتة مريعة. ويعمل المهدي المنتظر على تحرير الحرمين من النواصب، والقدس من بعد حربه الترك (على خلاف: هل هم الروس أم الأتراك)، فيقاتل "السفياني"، الذي يتحالف مع اليهود والروم، وتدور معركة كبرى بين الطرفين، تكون الغلبة فيها للمهدي، فيدخل القدس فاتحاً، وينزل الغضب الإلهي على قوات السفياني واليهود، وينطق الحجر فيشي بمن يختبئ خلفه. ثم يخرج الدجال بفتنته، ويتبعه اليهود والنواصب والشاذون والشاذات، لكن المهدي يكشف زيفه ويقضي عليه وعلى أتباعه.

وبعد تنحية الخصوم يجتمع النبي وجميع الأئمة الإثني عشر في الأرض مع أعدائهم: النبي قاضياً، والأئمة من علي فصاعداً مُدَّعين، والخصوم الشخصيون للأئمة مُدَّعى عليهم، ومن خلال مرافعةِ الاتهام سيكون الحديثُ عن تاريخ الخلافة كلها من بداية الإسلام إلى عهد المهدي.

ويتولى المهدي بعدئذ السيادة على العالم ويختار الكوفةَ عاصمة له، وتختفي كل الديانات ما عدا الإسلام، ولن يكون هناك أي مكان لعبادة الأوثان. (تنظر القصة كاملة كما أوردها الكليني في بحار الأنوار: ج١٣/ ص٢٠٩. ويراجع: جواد

-للخروج من وَرطة تَوَقُّف «الإخبارية» عن المضي قدماً في التهيئة لخروج المهدي - عقيدة «ولاية الفقيه» المثيرة للجدل الديني الشيعي الشيعي، ومَضَت في عمليةِ هَيمَنةِ على المرجعيةِ العربية العالمية للشيعة، واختطافها من النجف (العلوية) إلى قُم (الصفوية)، وسَلبِ لسانِ المرجعية العربي إلى اللسان الفارسي.

والحديث عن مَرحلةِ خروج «المهدي» يُلزم بالحديثَ عن «العراق»: عاصمة خلافته، وخاصة عراق هذا الزمان، وبالأخص عَهد نظام صدام حسين، وبه تُقرأ وتُفسَّر فرحة الشيعة -مُنقطعةَ النظير-بإعدام «السُفياني»؛ فمقتلُه عقيدةٌ مُكمِّلة لعصر ظهور «المهدي المنتظر»، الذي تُمثل العراقُ قاعدةَ دولته ومنطلق خلافته؛ إذ يَفتتحُ حُروبَه بمقارعة «السُّفياني» رَمزِ حُكمِ أهل السنة[1]، وعلى الرغم من أن النبوءة لم تكن على هذه الصورة الحَرفية لسيناريو اللقاء السفياني المهدوي، إلا أنهم اعتبروا أن «جيش المهدي» بقيادة مُقتدى الصدر جيشاً حقيقياً مُمثلاً لشخص المهدي ومُهيّئاً لظهوره القريب؛ وبهذا يُفهم وَصف المرجع علي السيستاني يوم إعدام صدام حسين بأنه «مبارك»، وأنه "يوم عظيم في حياة شيعة أهل البيت"،

علي: المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية؛ وعلي الكوراني العاملي: عصر الظهور؛ وجابر البلوشي: خروج المهدي عام ٢٠١٥م (www.jbolushi.com/books/main.htm).

(١) يُفسِّره محمد محمد صادق الصدر بـ "آخر الحُكّام المُنحَرفين لهذه المنطقة" (موسوعة الإمام المهدي، تاريخ ما بعد الظهور، ج٣/١٧٤) في إشارة إلى "أبي سفيان" بداية الحكم المُنحَرف في الإسلام عند الشيعة، التي تثبت رواياتهم أنه من ولده من نسل أمية، وليس اسم السفياني مهماً، بل الرمزية التي تدل على خط معين، وموقف من الإسلام الشيعي. (للتوسع ينظر: عبدالكريم الزبيدي: عصر السفياني، وموقع www.alghadeer-voice.com).

كما نقله موقعه الإلكتروني ووكالات الأنباء العالمية؛ وسبب صيحات مُنفذي عملية الإعدام المتكررة في أثناء تعليق الرئيس العراقي على حبل المشنقة صبيحة عيد الأضحى: "مُقتدى.. مُقتدى.. مُقتدى.."، وقد سارعت صحيفة «إشراق» العراقية -التي تصدر



إعدام الرئيس صدام حسين

باللغة الإنجليزية من الكوفة- في الثناء على «مقتدى الصدر» قائدِ ميلشيا جيش المهدي، قائلة: "إنه قدَّم صدام حسين كأضحية أول أيام العيد للشيعة في مختلف أنحاء العالم، واستطاع أن يهزمَ وحده الدول السُّنيّة بالضربة القاضية".

وبذات النَّفَس عبَّرت بعض الصحف الإيرانية عن هذه العقيدة؛ فيقول صفي الدين آتاور في مقال نشرته صحيفة «هَمشَهري» الإيرانية بُعَيدَ أيام من إعدام الرئيس العراقي: "كان لا بد من إعدام صدام حسين في عيد الأضحى، ليرتدي السُّنةُ ثوب الحِداد الأسود، ويدخلَ الحُزنُ قلوبَهم، وليعلموا أن الظلامَ أوشكَ على دخول بيوتهم، وأن الفجرَ باتَ يلوحُ في الأفق لدُوَلٍ ذاقت الظُّلمَ

لسنواتٍ طويلة...، وأن هناك مارداً خرج من قمقمه ولن يدخل ثانية، يدعى أهل الشيعة، لن يستطع أحد -مهما بلغت قوته- أن يوقفه بعد ذلك...".

قد يرى البعضُ في هذه القصص «خيالات» لا تستحق أن يُحكم على الفُرس بها، غير أن الأمر ليس كذلك إذا عُلِمَ أن تلك «العقيدة» توجبُ على أتباعها الإعدادَ لظهوره وتمهيد الطريق لدولته؛ إذ «المهدي» لن يَخرُجَ ما لم تتهيأ الظروف، يقول علي كوراني العاملي: "تتفق مصادر الحديث الشيعية والسُّنية حول المهدي (ع) على أنه يَظهر بعد حركةٍ تمهيدية له، وعلى أن أصحاب الرايات السود من إيران يمهدون لدولته ويوطئون له سلطانه..."[1]، ويعلق على ذلك بالقول: "مهما قال القائلون في تقييم الثورة الإيرانية سياسياً، فإن المتفقَ عليه أنها من ناحيةٍ عَقِيديةٍ حركةٌ مُمَهِّدةٌ للإمام المهدي (ع).

في إيران تشعر أن حضور المهدي المنتظر (ع) هو الحضور الأكبر من الثورة وقادتها، فهو القائد الحقيقي للثورة والدولة؛ الذي يَذكر

---

(١) علي كوراني العاملي: عصر الظهور، ص١٥٩/ دار المحجة البيضاء – بيروت. ط ٢٠٠٤/٧م، ومن المهم التنبيه إلى أن السنة لا يتفقون مع الرؤية الشيعية في كينونة المهدي، لا من حيث الجذور في السلسلة المباركة (يرونه من الفخذ الحسني لا الحسيني على الراجح)، ولا من حيث السرمدية (يرون أنه سيولد كباقي البشر وليس خالداً منذ مولده)، ولا من حيث تفاصيل الوظيفة الشرعية (يتفقون مع الشيعة في كونه يخرج في زمن الفتنة العمياء وفشو الهرج والمرج، وضعف المسلمين العام وتكالب الأمم عليهم)، لكن وظيفته قيادة الأمة الإسلامية لقتال الأعداء التقليديين من يهود ونصارى، ويواجه مع عيسى ابن مريم العَدُوَّين القَدَريين (الدجال ويأجوج مأجوج)، وليس القضية كما تصورها الأدبيات الشيعية على أنها تصفية حسابات مسألة الإمامة كما سيرد في ثنايا هذه الدراسة.

اسمه قادةُ الثورة والدولة باحترام وتقديس، فيقولون: أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، وإنما البلد بلده، وغاية ما نرجوه أن نسلِّم البلد إلى صاحبه الأصلي (ع). وفي ضمائر الناس في إيران وشعاراتهم، وأسماء أبنائهم ومؤسساتهم وشوارعهم ومحالّهم التجارية.. الإمام المهدي (ع) هو السيد الحاضر بقدسية، وفي ضمير المقاتلين في إيران ولبنان، الذي يذوبون إليه شوقا ودموعا، ويرونه في منامهم، ويرون ملائكته في يقظتهم، ويستشرفونه بأرواحهم...".[1]

ويقول في موطن آخر من كتاب عصر الظهور: "أما دولة المُمَهِّدين الإيرانيين فتنقسم إلى مرحلتين متميزتين:

المرحلة الأولى: بداية حركتهم على يَدِ "رَجُلٍ من قُم"، ولعل حركته بداية أمرِ المهدي (ع)، حيث وَرَدَ أنه (سيبدأ مِن قِبَلِ المشرق)..

والمرحلة الثانية: ظهور الشَّخصِيَّتين الموعُودَتَين فيهم: الخراساني وقائد قواته، الذي تُسميه الأحاديثُ شعيب بن صالح"[2].. والكوراني لم يَجزم بأن «رَجُل قُم» هو الخميني قائد الثورة بل لَمَّح إلى ذلك[3]، لكنه يميل إلى أن «الخراساني» هو المرشد الأعلى للثورة علي خامنئي، و«شعيب بن صالح» هو الرئيس الحالي محمود أحمدي نجاد[4]، وبذلك تكتمل الأسطورةُ المهدوية

---

(١) عصر الظهور/ ٧-٨

(٢) عصر الظهور/١٦١

(٣) يقول في صفحة ١٦٥: "لا يوجد في الروايات تحديد لزمان هذا الحدث، لكن مجموع صفاتها، مضافا إليها ما ورد في الروايات الأخرى عن قم وإيران، ترجح احتمال أن يكون المقصود بها الإمام الخميني وأصحابه".

(٤) يرى آخرون أنه قائد الحرس الثوري الجنرال محمد علي جعفري؛ بحكم أنه قائد القوات الفعلي لحرس المُمَهِّدين، ونص عبارة الكوراني: "يبدو من أحاديثه

الخَلاصِية، وتُركَّبُ عليها عقيدةٌ قِوامُها الدَّمُ ومَسرحها التصفيةُ (= حرب مَذهَبية) لكل مُخالف، وتمتلئ الأدبيات الشيعية بأوامر لا لَبسَ فيها بقتل العرب (= النواصب)، واستباحةِ بَيضَتهم، وتشتيت جمعهم قَبلَ أعداءِ الأمةِ التقليديين على مدار التاريخ.

إستراتيجية تصدير الثورة

وبهذين العُنصرين يمكن فهم «العقيدة الوظيفية» السياسية لنظام الثورة الفارسي المعاصر، وأماكن تحركها الجيوسياسي، فهي تتحرك بدافع نبوءات تمهيد الطريق لخطوات مملكة المهدي المنتظر، ففي أي موطن ستخطو قدماه يجب أن يكون لأهل الشرق استباق في «مناطق الظهور» التي تشمل -إلى جانب إيران- الحجاز واليمن والعراق وبلاد الشام، وفلسطين ومصر والمغرب؛ لتعبيد السبيل، وتحريك مؤشرات القَدَر الآذنة بخُروجه من مخبئه، وبدء

منطقة ظهور الإمام المهدي

«عصر الظهور»، وتحرير تنبؤات المعصومين من إسار «الكلمة» إلى فضاء «الفعل» الذي طال انتظاره.

فإيران -في النظرة الغَنُوصِيَّة الشيعية[1]- التي تقعُ في شرق

(=الإمام الباقر) أنه القائد الأعلى لدولة أهل المشرق، ولكن يبقى احتمال أن يكون قائداً سياسياً بإمرة المرجع والقائد الأعلى أمراً وارداً..". عصر الظهور/ ١٨٥.

(١) الغنوصية كلمة يونانية (Gnosis)، وهي نزعة فلسفية ترمي إلى مزج الفلسفة بالدين، وترى أن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر من الإيمان والعمل، ويرى المسيري أن كل الأنساق الغنوصية تدور في إطار الحلولية الكُمُونية (=الحلول والاتحاد). (أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (مادة: غنص)، وعبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢٩/٨)

شبه الجزيرة العربية، هي موطن أصحاب «الرايات السود»، وقد خرج فيها "رجل من قُم، يدعو الناس إلى الحق. يجتمع معه قوم قلوبهم كزُبَر الحديد، لا تُزِلُّهم الرياحُ العواصف، ولا يَمَلُّون من الحرب ولا يجبُنُون"(١)

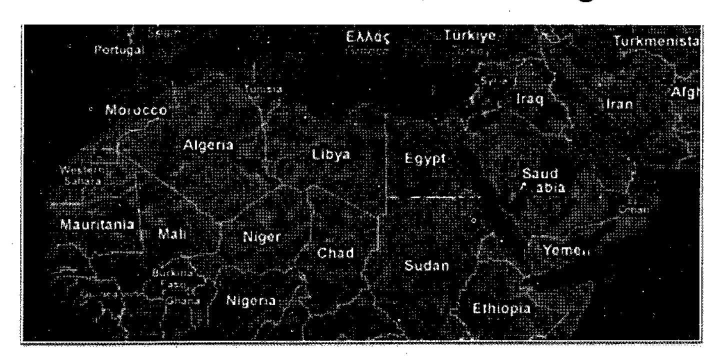
أما بلاد الشام ففيها يكون «عثمان السفياني» آخر مظاهر الحكم السُّني الأموي، الموالي للروم والمتحالف مع اليهود، الذي يُوَحِّد الأردن ولبنان وسوريا، ويشكل خط دفاع «عربي» عن دولة اليهود، وقاعدة مواجهة للإيرانيين الممهدين، ولأجل إحكام السيطرة يقوم السفياني باحتلال العراق، التي سيخرج منها «عصائب أهل العراق» أبدال أهل الشام ويقاتلون إلى جنب المهدي، إلى جانب رجال الصدق من المغاربة.

أما الحجاز (مكة والمدينة) فهي موطن خروج المهدي، وبداية منطلق دعوته، واليمن هي عضيد الدولة الإيرانية الممهدة، كما أن مصر ستكون مركز البث الإعلامي والفكري لدولة المهدي، ومنبر الدعوة لسلطانه، والمصريون هم وزراء المهدي النجباء."(٢)

(١) عصر الظهور/١٨، وقد اعتمد الباحث الرؤية الشمولية التي يطرحها الكوراني العاملي لما قبل ظهور المهدي، وتفصيل حال منطقة الظهور بحسب تلك النبوءات الشيعية، التي يتضح فيها الخلط وعدم مطابقة الواقع، وخاصة إذا عُلم أنهم يؤرخون مدة ست سنين بعد ظهور الشخصيتين الموعودتين للتمهيد لمقدم المهدي، وهما الخراساني وشعيب صالح، وهم الآن في انتظار انقضاء مدة الرئيس محمود أحمدي نجاد، التي يعتقد الكثيرون أنها ستمدد، إلى حين خروج المهدي، لأنه -في الأغلب- شعيب صالح، ويعتقد الباحث أنه بموت المرجع الأعلى علي خامنئي، الذي يعتقدون أنه الخراساني الموعود، سيضطرب شأن الإيرانيين، وسيعيدون تشكيل النبوءات لصالح استمرار أثر العقيدة الوظيفية السياسية الفارسية في الهيمنة على عقول الشيعة في المنطقة.

(٢) عصر الظهور/٧٠، لكن المعضلة أن المد الشيعي في مصر ليس على المستوى المأمول

فخروج المهدي - أو لنَقُل: إرغامه على الخروج قَدَراً - هي العقيدة الوظيفية الأبرز التي يمكن أن تُسلك الخِطَطُ التي وضعها النظام الفارسي الصفوي لتصدير الثورة إلى دول الجوار، على اعتبار أنها آليات عمل مُمهدة لمقدم المعصوم، وقد رَشَحَت خطتان أولاهما - من حيث الأهمية والشمول - كانت الخطة الخمسينية المتعلقة بتصدير المذهب، والثانية العشرينية المتعلقة بترسيخ الدولة، وكلاهما تعتمد سياسة التدرُّج، وعلى الرغم من تأخرها إلا أن بعض دول المنطقة



قد تنبهت فعلياً - عن طريق مخابراتها وتبادل المعلومات فيما بينها - إلى حقيقة وجود مثل هذا المخطط، فمهما حاولت القيادات الإيرانية التمويهَ والإنكار العلني، إلا أن نتائجها واضحةٌ للعيان، ولعل الوضع العراقي قد خدم المصالح الإيرانية منذ أحداث ربيع عام ٢٠٠٣ التي هَزَّت المنطقة، فجاء بالجنوب العراقي على طبق من فضة للنظام الإيراني، ثم تبعته عربدة إسرائيلية في لبنان صيف

في هذا الزمان، وهذا يفسر تكثيف الجهود لنشر المذهب الشيعي بقوة فيها، وانزعاج النظام المصري الشديد من ما تعتبره عملاً استفزازياً لا يمكن تجاوزه؛ نظرا لاطلاعهم على النوايا الإيرانية وعقيدتها الدافعة.

٢٠٠٦م[1]، وألحقتها بأخرى في قطاع غزة عام ٢٠٠٨م، وهذا بدوره سحب البساط من تحت أنظمة الجوار، بل أسرع في وتيرةِ نجاحات المخططات الإيرانية في التبشير الشيعي الصفوي، فما كان مُخططاً له بالأمس أن يكون في خمسين سنة، أمكن تقليصه لعشرين سنة، ومن ثم إلى أقل من ذلك؛ بسبب الفراغ الأمني الذي أحدثته أجندة إدارة المحافظين الجدد الأمريكية في المنطقة، وإذا حصل اتفاق بين الأمريكان والإيرانيين بقبول العَرض الفارسي السِّري -على ما سيذكر لاحقاً - فإن عملية تصدير الثورة وتشييع المنطقة ستشهد ثورةً في ذاتها، ستسرّع إيقاعها بأكثر من توقعات الإيرانيين أنفسهم، وسيُسقط في أيدي قيادات دول الجوار حتماً، وربما -إن حصل اتفاق على تقاسم النفوذ في المنطقة بين الطرفين- ستشهد شعوب المنطقة ثورات وحروباً أهلية مبنية على أسس مَذهبية طائفية، سيَتَقزَّمُ لها المشهد العراقي.

بعد نجاح الانقلاب الخميني على شاه إيران البهلوي، وَعَدَ قائد الثورة بنشر هذه الثورة في أماكن أخرى من دول الجوار (العراق، ودول الخليج العربي، لبنان...إلخ) وكان يطلق على هذه الطريقة مصطلح "تصدير الثورة"، حيث أعلن في بيان الذكرى السنوية الأولى لانتصار الثورة في ١١/٢/١٩٨٠: "إننا نعمل على تصدير ثورتنا إلى مختلف أنحاء العالم"[2]، وهذه الثورية هي مسألة إستراتيجية مبدئية؛ إذ يؤكد مرشد الثورة علي خامنئي، في مقابلة صحافية حينما سئل عن البرنامج الاقتصادي والاجتماعي

---

(١) أحدثت تلك التقلبات نقلة نوعية لسلاح حزب الله وموقعه السياسي في المشهد اللبناني بأسره، دون تدخل سوري أو عربي، وهو ما أثار إعجابَ العالم.

(٢) تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني/ ٣٩

والسياسي لقيادته -بعد وفاة الخميني-فقال: "أول أهداف حزبنا هو بث التوعية الإسلامية السياسية والتربية الثورية بين صفوف الشعب الإيراني".(١)

ولتحقيق هذه الغاية الإستراتيجية أُنشئت التنظيمات الداخلية والخارجية الخاصة بتصدير الثورة بروح العمل الثوري الانقلابي، فقامت بالعديد من العمليات في لبنان والكويت والسعودية والبحرين، وأقامت العلاقات مع أغلب الحركات الإسلامية التي في حالة صراع مع الأنظمة السُّنية القائمة.(٢)

لقد مرت الثورة الخمينية بأربع مراحل على الشكل التالي: كانت مرحلة «الخميني» التي تركز على الإسلام الشيعي وتأمين الثوار، ثم جاءت مرحلة «رفسنجاني» التي تركزت على تأسيس السياسة الإيرانية كدولة على خريطة العالم، ثم جاءت مرحلة «خاتمي» لتكون مرحلة بناء المجتمع المدني وتحسين العلاقات الدولية، وتأتي الآن مرحلة «نجاد»، التي تمثل مرحلة التمكين العسكري للدولة الإيرانية.(٣)

لقد وظّفت إيران كل طاقاتها الإستراتيجية والتكتيكية واللوجستية لخدمة أهدافها العقائدية والسياسية العليا، فرصَّت صفوف عقولها لتركز على وضع الآليات الكفيلة بتصدير ثورتها

---

(١) مجلة الوطن العربي/ عدد ١٠٩

(٢) تنظر مجلات الوطن العربي مطلع الثمانينيات ورصدت هذه الأعمال، وكتاب محمد حسنين هيكل: مدافع آية الله، قصة إيران والثورة/ط٣-١٩٨٣م، وكتاب رياض نجيب الريِّس: مصاحف وسيوف؛ إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية/٢٠٠٠م.

(٣) ينظر كتاب محمد صادق الحسيني: الخاتمية، فقد أرخ وحلل الفترات الثلاث الأولى: الخميني ورفسنجاني وخاتمي، وأضاف الباحث الرابعة.

إلى الدول المجاورة، ولتغلغل نفوذها في نسيج العالم العربي، ومن ثم اعتمدت خطط عمل[١]، وعُقدت المؤتمرات التي تكفل استمرارها على النهج، ومراجعتها لما حققته من نجاحات، وتفادي الإخفاقات؛ وهذا سر تفوُّق النموذج الفارسي الثوري، الذي استفادَ من فكر الإخوان فيما يُعرف بنظرية الإسلام الحركي؛ لـ«ثقفنة» الثورة وأسلمتها، ومن ثم استفادت من التجربة الصهيونية في تمكين دولتها، واللعب مع الكبار بقواعدهم وإستراتيجياتهم..

إن أهم وثيقة وصلت إلى يد الرأي العام هي وثيقة «الخطة الخمسينية» الصفوية، وأهم مؤتمر لشيعة ولاية الفقيه هو مؤتمر «شيعة عليٍّ هم الغالبون»، وهما حريان بمزيد من النظر والفحص.

نشرت رابطة أهل السنة في إيران (مكتب لندن) رسالة سرية للغاية، موجهة من شورى الثورة الثقافية الإيرانية إلى المحافظين في الولايات الإيرانية، تحتوي هذه الرسالة على خطة عمل مفصلة في نشر الثورة وتصديرها، ولكن بأسلوب جديد دون حرب أو إراقة دماء، والمتابع للحركة الإيرانية في العالم والنشاط الشيعي، يرى أن هذه الخطة موضع تطبيق واضح، بل تحقق نجاحات واسعة، وهي حرية بشيء من البيان.[٢]

(١) يحلو للبعض تسميتها "مؤامرات"، التسمية المُختارة أدق من حيث المعنى والمبنى، والملاحظ أن الثورة لم تقف عند تصدير الأيديولوجيا، بل صدرت معها طريقة نجاحها أيضاً، لضمان استنساخها في دول الجوار، وصناعة حكومات على النموذج الخميني، على غرار النموذج العراقي القائم.

(٢) لقد نشر عدد من الصحف مناقشات وتجاذبات فكرية حول هذه الخطة، كان أشهرها في البحرين للكاتبة القومية الشيعية سميرة رجب، عبر صفحات جريدة أخبار الخليج، وكتب بحريني آخر هو د. هادف الشمري دراسة حول هذه الخطة "وانعكاساتها على واقع مملكة البحرين"، سبقه د. ناصر القفاري في دراسة هذه

وتطبيقاً لهذه السياسة المتجددة للروح الثورية بقيادة الرئيس محمد خاتمي، أصدرت مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني في طهران كتابا عام ١٩٩٧ بعنوان «تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني»، أكدت فيه أن تصدير الثورة هو منهج ثابت للخميني، لكن "مبدأ تصدير الثورة لا يَعني الهجومَ العسكري وتحشيدَ الجيوش ضد البلدان الأخرى مطلقاً"، وكانت فصول الكتاب على النحو الآتي:

الفصل الأول: تصدير الثورة سمة ملازمة للثورة الإسلامية.

الفصل الثاني: فكر صادق وعزم راسخ على طريق تصدير الثورة.

الفصل الثالث: الثورة الإسلامية مثال القيم المنشودة.

الفصل الرابع: ماذا نعني بتصدير الثورة؟

الفصل الخامس: تصدير الثورة الدوافع والسبل والأهداف.

الفصل السادس: أصدقاء الثورة الإسلامية و أنصارها.

الفصل السابع: تصدير الثورة يزرع الرعب في نفوس الأعداء.

الفصل الثامن: تصدير الثورة الإسلامية حقيقة واقعة.

ويُصرِّح الكتاب أن تصدير الثورة هو "تصدير المعنويات التي وجدت في إيران،...، فنحن لا نريد أن نشهر سيفاً أو بندقية ونحمل

الخطة وتطبيقاتها على العربية السعودية في كتاب "بروتوكولات آيات قم"، وتناولها في عدد من كتبه العراقي د. طه الدليمي، ومن الأردن كتب أسامة شحاتة بحثا حول الخطة بعنوان "الخطة السرية: دراسة في الأسلوب الجديد لتصدير الثورة الإيرانية"، وكتب عنها أيضاً الفلسطيني على حسين باكير تحت عنوان "كيف نواجه المشروع الإيراني".

على الآخرين،...، نتطلع إلى تصدير ثورتنا الثقافية،...، نتطلع إلى إيجاد مصالحةٍ بين الشعوب وحكوماتها،...، نتطلع إلى تصدير الثورة عن طريق الإعلام والتبليغ،...، هدفنا أن نُعَرِّفَ الإسلام على حقيقته في حدود قدراتنا الإعلامية، وعن طريق ما بحوزتنا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وكذلك من خلال الوفود التي تبعث إلى الخارج...". (1)

أما الأدوات فيرى الكتاب أنها "تطبيق الإسلام في إيران،...، العاملين في السفارات،...، مجالات الطلبة في الخارج،...، الاتحادات الإسلامية في الخارج،...، الزيارات الشعبية،...، الحجاج الإيرانيين..."(2)، والكتاب الجديد في أسلوبه، يُحارِب فكرة العمل الثوري «الانقلابي»، مُقتفياً سياسة خاتمي في «الانفتاح الثقافي» و«حوار الحضارات»، إلا أنه يقفز فوق تفجيرات مكة المكرمة أو حوادث اختطاف الطائرات أو التفجيرات في دول الخليج العربي، وخاصة في الكويت والبحرين والسعودية، بل يقفز فوق حزب الله في لبنان وفروعه في الدول الأخرى، كنتائج لذلك التصدير الثوري.(3)

(1) تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني: صفحة ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٩

(2) مرجع سابق: صفحة ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ١٠٠

(3) إن حقيقة الخلاف بين الإصلاحيين (جناح الرئيس خاتمي) والمحافظين (جناح الرئيس نجاد) تكمن في التكتيك لا الإستراتيجية، وللتقريب: يمكن قياسهما على عمل الحزبين الأمريكيين الجمهوري والديمقراطي، أو الحزبين الإسرائيليين العمل والليكود، فالإستراتيجية واحدة، لكن التكتيكات تختلف، وهذا يساعد على فهم التصريحات المضادة المتبادلة، والمظاهرات الطلابية المؤيدة لخاتمي والمعارضة لنجاد، فالإصلاحيون يرون أن سياسة المحافظين ثورية تكشف أكثر مما تستر، ويرى المحافظون أن سياسة الإصلاحيين تُهادن أكثر من المطلوب.

ويمكن اعتبار كتاب «تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني» مقدمة للخطة الخمسينية، التي ترمي إلى تغلغل «الخمينية» في نسيج الحكومات والمجتمعات السُّنية المُتَمَنِّعَة، وواضح أنه قام على إعدادها مجموعةٌ من الخبراء المحترفين؛ إذ يظهر عليها الصبغة الاجتماعية والسياسية والتاريخية والاقتصادية، وتعتمد على أركان أساسية جوهرها تحسين العلاقات مع الآخرين (تحت غطاء تقريب المذاهب)، وتهجير عدد من العملاء إليه (ترانسفير وظيفي)، كما عرضت الخطةُ تحليلاً لعناصر القوة في دول الجوار (قوة السلطة، والعلم والمعرفة، والاقتصاد)، وقدَّمت تشريحاً لدول الجوار وعناصر التشكيل السكاني فيها.

وتُركز مجالات تطبيق الخطة بداية على المدن والمناطق السُّنية في إيران، ومن ثم تمتدُّ لتشمل الدول الأخرى ذات النشاط الشيعي السهل (تركيا والعراق وأفغانستان وباكستان والبحرين)، فالدول الأخرى التي نشاط الشيعة فيها صعب (دول الخليج العربي باستثناء البحرين والأردن ومصر).

وتُقسَّم الخطة إلى خمس مراحل، مدة كل واحدة عشر سنوات، هذا على افتراض عدم تسريع عجلة التنفيذ بتكتيكات مختلفة على غرار ما حصل في العراق ولبنان مؤخراً.

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس ورعاية الجذور:

١. إيجاد السكن والعمل لأبناء المذهب المهاجرين في هذه الدول.

٢. إنشاء العلاقة والصداقة مع أصحاب رؤوس الأموال والمسؤولين الإداريين في الدولة.

٣. محاولة خلخلة التركيبة السكانية، عن طريق تشتيت مراكز السنة، وإيجاد تجمعات شيعية في الأماكن المهمة.

المرحلة الثانية: مرحلة البداية:

وهي العمل من خلال القانون القائم، وعدم محاولة تجاوزه، ومحاولة الحصول على إذن للأنشطة، وتعتبر فيما بعد وثائق رسمية ومحاولة التسرب إلى الأجهزة الأمنية والحكومية، والسعي للحصول على الجنسية للمهاجرين الشيعة، وهذا يكون في النصف الأول، أما في النصف الثاني فيركز على الوقيعة بين علماء السنة (= الوهابيين) والدولة من خلال تحريض العلماء على المفاسد القائمة وتوزيع المنشورات باسمهم، ووقوع أعمال مريبة، وإثارة الاضطرابات بسبب ذلك، ثم تحريض الدولة عليهم؛ بهدف إثارة أهل السنة على الحكومات حتى تقمع تلك الحكومات أهل السنة، فيتحقق لهم:

١. سوء ظن الحكام بكل المتدينين من أهل السنة وكل أنشطتهم.

٢. نمو الحقد والعداء بين الطرفين.

٣. ضياع مكانة أهل السنة وسلطتهم المادية والمعنوية.

٤. إحجام الحكام عن المساعدة في نشر الدين.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانطلاق:

وعندها تكون قد ترسخت العلاقة بين الحكام وهؤلاء العملاء (الصفويين)، وزاد التغلغل في الأجهزة الحكومية والعسكرية مع عدم التدخل في الأنشطة الدينية، يرافق ذلك إبراز أن الشيعة

مذهب لا خطر منه عليهم (=الحكام) ليزداد التغلغل في أجهزة الدولة؛ ويأمل المخططون أن تكون القدرات الاقتصادية والبنية التحتية في إيران قوية في ذلك الوقت، ليضربوا اقتصاد هذه الدول السنية، فتتحول رؤس الأموال السنية إلى إيران مع إعطائهم الحرية في العمل الاقتصادي في إيران من أجل المعاملة بالمثل، فتزداد السيطرة على اقتصادياتهم لأننا (=الشيعة) نخطط لذلك، وهم إنما يتحركون بشكل فردي ومن أجل الربح فقط.[1]

المرحلة الرابعة: مرحلة بداية قطف الثمار:

ستشهد هذه الدول فرقة بين الحكام والعلماء، والاقتصاد على وشك أن ينهار، والشعب ليس له ولاء لبلده بسبب الأحوال السياسية والاقتصادية، وسيكون عملاؤنا جاهزين لاستغلال الفرصة للوصول إلى المناصب الحساسة، ويتقربون إلى الحكام أكثر، وسوف نحارب المخلصين من أهل السنة عن طريق الوشاية بهم وثمار ذلك كله:

- سيطرة عناصرنا على مقاليد الأمور.
- زيادة سخط أهل السنة على الحكام بسبب نفوذنا.

وعلى عملائنا الوقوف دائما مع الحكام، وحث الناس على الهدوء وعدم الفوضى، وعليهم زيادة نفوذهم وشراء الأراضي والعقارات.

المرحلة الخامسة: مرحلة النضج:

تكون الدول قد فقدت مقومات القوة (الأمن، الاقتصاد، الهدوء)، والسلطة تواجه اضطرابات شديدة، عندها سنقدم أنفسنا كمُخَلِّصين، من خلال اقتراح تشكيل مجلس شعبي لتهدئة الأوضاع، ومساعدة الحكام على ضبط البلد، وسيكون عملاؤنا هم

(١) وقد صدقوا فهذه حقيقة لا تنكر.

أغلب أعضاء المجلس، ولذلك تزداد النفرة بين العلماء والحكام، وبذلك تتحقق السيطرة على هذه البلدان، ونتمكن من تصدير الثورة دون إراقة دماء أو حرب؛ فإذا لم يتحقق هذا من خلال عمل هادىء، فلا مانع عند ذلك من إثارة ثورة شعبية ونسرق السلطة من الحكام.[١]

* * *

(١) إن السخط يعم حالياً الشرائح السُّنية على حكوماتها في مختلف مناطق الخليج العربي، بسبب المهادنة المبالغة من الأنظمة وتراخيها مع حالات الشغب التي يحدثها الشيعة في بلدانهم، في مقابل عدم تساهلها مع أقل من ذلك بكثير من قيادات الرأي السنية، حتى بدأت حملات تنطلق من السنة ضد حكوماتها (السعودية والبحرين) لما يرونه من تفريق فاضح في المعاملة، واستمالة واضحة للشيعة على حساب السنة، وهذا ما تشير له خطة العمل الخمسينية؛ ولعله من المفيد الإشارة إلى حكاية ترويها كتب التاريخ والأدب عن أحد الأمراء الأمويين يسأل أميراً أموياً آخر يقبع معه في سجن العباسيين عن سبب سقوط دولتهم، فأجابه بالتوصيف المتجدد الآتي: "لقد قرَّبنا الخصوم طمعاً في كسب ولائهم، وأبعدنا حلفاءنا والموالين، فظل الأعداء على خصومتهم لنا، وانقلب الحلفاء والموالون علينا، فضاعت دولة بني أمية".

الحلف الفارسي المُمَهِّد

يَصُب في سياق الخطة، وربما ناتج عنها، مؤتمر «شيعة عليٍّ هم الغالبون»[1]، الذي التأم منتصف ٢٠٠٦؛ يمكن اعتباره خطوة متقدمة لصناعة حلف متخصص يلمُّ شعث الجهود المتناثرة للتمهيد لمقدم الإمام المهدي المنتظر، فقد جمعت إيران في هذا المؤتمر أغلب رجالات الشريعة والملالي (= المُعَمَّمين) والمفكرين والسياسيين وأرباب المال، إضافة إلى العسكريين، من مُعتقدي «ولاية الفقيه»، للتشاور في المرحلة القادمة، بعد أن سقط النظام العراقي، وغرقت القوات الأمريكية في وحل أفغانستان والعراق معاً، وبدأت الدبلوماسية الأمريكية تترنح تحت الضغوط الداخلية والخارجية، وبعد أن بدأت الميليشيات تفعل ما يُطلب منها تماماً في هذه اللعبة، ونجحت خطط الترهيب والتمزيق العرقي المذهبي في العراق، وأصبحت الخلايا النائمة في الخليج العربي جاهزة، وأخذت فرائص حكومات الخليج العربي المنكشفة إستراتيجياً ترتعد من المخطط الفارسي

---

(١) وهي تسمية -يتضح الاقتباس فيها من قوله تعالى في سورة الصافات (وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ)- مفادها أنه من كان مع عليٍّ أمير المؤمنين (=الشيعي الأول)، فإن الغلبة والنصرة في جانبه لا محالة، وبمفهوم المخالفة فإن الخذلان والهزيمة على خصومه؛ إلا أن المفارقة أن هذا التوظيف للآية ومعناها الشامل في المؤتمر لم يكن القصدُ منه الذين كفروا بالله ورسوله وحاربوا دينه من يهود أو نصارى أو مجوس، لا بل المقصود به عموم المسلمين من أتباع السفياني (=النواصب)، الذين "كفروا" بولاية عليٍّ وآل بيته المعصومين؛ ومؤتمر كهذا لا يُقاومُ أيَّ مراقب فكرةَ تشبيهه بمؤتمر بازل الذي دعا إليه ثيودور هرتزل، داعيا إلى تفعيل الخطة الصهيونية العالمية فيما يتعلق بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين عام ١٨٩٧م.

وتحسب له حساباً مغايراً، كما أن المؤتمر جاء بعد تسليم إيران للأمريكان مشروعَ تسوية يثير الفضول (سيأتي ذكره لاحقاً).

لقد تسربت وثيقة المؤتمر أيضاً -مطلع العام ٢٠٠٧-إلى الرأي العام عن طريق بوابة الفوضى العراقية؛ وتأتي في أولويات بروتوكولات المؤتمر تأسيس منظمة عالمية تسمى «منظمة المؤتمر الشيعي العالمي»، كمنظمة بديلة عن منظمة المؤتمر الإسلامي، يكون مَقرُّها «قُم» بدلاً من «مكة» وفروعها في كافة أنحاء العالم.

كما تدعو الوثيقة إلى اقتباس تجربة الشيعة في العراق «الناجحة»، لتعميمها في الدول الإسلامية الأخرى، وفي مقدمتها: السعودية والأردن واليمن ومصر والكويت والإمارات والبحرين والهند وباكستان وأفغانستان.

وتقترح الوثيقة التركيز على:

- استغلال كافة الإمكانيات والطاقات النِّسَويَّة في كافة الجوانب وتوجيهها لخدمة الأهداف الإستراتيجية للمنظمة.
- والتأكيد على احتلال الوظائف التربوية والتعليمية.
- التنسيق "الجدّي والعملي" مع القوميات والأديان الأخرى لاستغلالها في دعم الشيعة بالعالم.

ولضمان تحقيق الأهداف المرجوة من الخطة، يجب:

- تصفية الرموز والشخصيات الدينية البارزة من السنّة.
- دَسُّ العناصر الأمنية في صفوفهم للاطلاع على خططهم ونواياهم.
- فرض مقاطعةٍ على بضائع دُوَل السُّنّة في مقابل تشجيع الصادرات الإيرانية.

وفيما يلي نص الوثيقة:

"المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق" الرئاسة إلى قيادات المكاتب والفروع.. بيان سري وعاجل: "بتوجيه ورعاية سماحة آية الله العظمى السيد علي خامنئي (المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران) دام ظله، وتحت شعارات "شيعة عليّ هم الغالبون"، تم عقد المؤتمر التأسيسي المُوَسَّع لشيعة العالم في مدينة "قُم" المقدسة.. حضره كافة قيادات الأحزاب الشيعية والمراجع ورؤساء الحوزات الدينية والأساتذة والمفكرين والباحثين، وتم مناقشة عدة جوانب مهمة، وخرج بالتوصيات التالية:

١. ضرورة تأسيس منظمة عالمية تسمى "منظمة المؤتمر الشيعي العالمي"[(١)]، ويكون مقرها في إيران وفروعها في كافة أنحاء العالم، ويتم تحديد هيئات المنظمة وواجباتها، ويتم عقد مؤتمر خاص خلال كل شهر.

٢. دراسة وتحليل الوضع الراهن على الساحة الإقليمية، والاستفادة من تجربتنا الناجحة في العراق، وتعميمها على بقية الدول، وأهمها: السعودية (قلعة الوهابية الكفرة)[(٢)]، والأردن (عميل اليهود)، واليمن ومصر والكويت والإمارات والبحرين والهند وباكستان وأفغانستان، والتأكيد على الخطة الخمسينية

---

(١) وهي جهاز بديل عن منظمة المؤتمر الإسلامي التي مقرها في مكة المكرمة، كما هو واضح.

(٢) لُمست البوادر الأولى في حادثة البقيع في فبراير ٢٠٠٩، التي هجم فيها الشيعة على قبور أزواج النبي وتعاملت معهم القوات الأمنية، ثم على إثرها حصلت اعتصامات أمام السفارة السعودية في بريطانيا بالمطالبة بوضع الحرمين الشريفين تحت الوصاية الأممية، واستقلال البحرين الكبرى (البحرين والمنطقة الشرقية من العربية السعودية)

والعشرينية، والبدء بتطبيقها فوراً.

٣. بناء قوات عسكريةً غيرنظامية لكافة الأحزاب والمنظمات الشيعية بالعالم، عن طريق زجّ أفرادها في المؤسسات العسكرية والأجهزة الأمنية والدوائر الحساسة، وتخصيص ميزانية خاصة لتجهيزها وتسليحها وتهيئتها لدعم وإسناد إخواننا في السعودية واليمن والأردن.

٤. استثمار كافة الإمكانيات والطاقات في كافة الجوانب وتوجيهها لخدمة الأهداف الإستراتيجية للمنظمة، والتأكيد على احتلال الوظائف التربوية والتعليمية.

٥. التنسيق الجدِّي والعملي مع كافة القوميات والأديان الأخرى، واستغلالها بشكل تام لدعم المواقف والقضايا المصيرية لأبناء الشيعة بالعالم، والابتعاد عن التعصّب الذي يَصُبُّ لمصلحة أبناء العامة (السُنَّة).

٦. تصفية الرموز والشخصيات الدينية البارزة لأبناء العامة، ودس العناصر الأمنية في صفوفهم للاطلاع على خططهم ونواياهم.

٧. على كافة المرجعيات والحوزات الدينية في العالم تقديم تقارير شهرية وخطة عمل سنوية لرئاسة المؤتمر، تتضمن كافة المعوقات والإنجازات في بلدانهم والمقترحات اللازمة لتحسين وتطوير أدائها.

٨. إنشاء صندوق مالي عالمي مرتبط برئاسة المؤتمر، وتُفتح له فروع في كافة أنحاء العالم، وتكون الموارد أحيانا جمع الأموال من

الحكومات العُرفية[1] - وخاصة العراق - وتبرعات التجار الأثرياء وزكاة الخمس، وكذلك التنسيق مع الجمعيات والمنظمات الخيرية والإنسانية لاستلام المساعدات والمعونات المادية لدعم متطلبات المؤتمر الإدارية والإعلامية والعسكرية.

٩. تشكيل لجنة متابعة مركزية لتنسيق الجهود في كافة الدول وتقويم أعمالها.

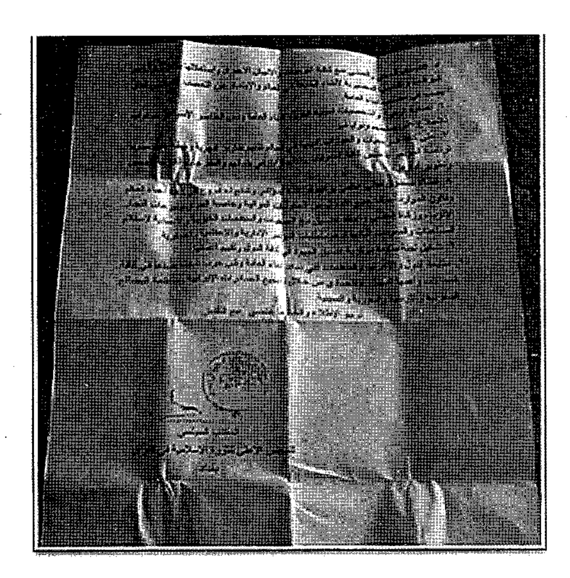
١٠. متابعة الدول والسلطات والأحزاب، وشنّ حرب شاملة ضدها في كافة المجالات، وأهمها "المجال الاقتصادي"، من خلال تشجيع الصادرات الإيرانية ومقاطعة البضائع السعودية والأردنية والسورية والصينية.

توقيع: المكتب السياسي لـ "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق" بغداد.

* * *

(١) هذا مصطلح جديد على السياسة الدولية (قديم في الفقه الجعفري)، أن تُسمى حكومات الدول المستقلة بالحكومات العرفية، وكأنها ليست حكومات حقيقة، بمعنى أنها حكومات تابعة وخاضعة لأطراف أخرى، متعارف عالمياً بأنها حكومة، لكن تعريف الطرف المهيمن لها يختلف عن التعريف الدولي، وهي لب مسألة الولاء التي تُثار بين الفينة والأخرى حول الشيعة، ولهذا خصص البيان الإشارة إلى العراق لكونه أصبح في القبضة الإيرانية سياسياً ودينياً.





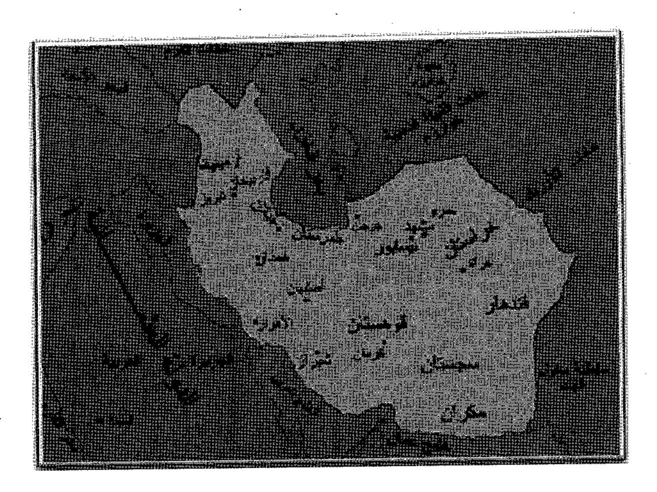
صور الوثيقة وهي في صفحتين

ثانيا: البُعد الإستراتيجي التاريخي

ترى جمهورية إيران أنها امتداد لمشروع إمبراطوري، ابتدأه إسماعيل بن حيدر شاه الصفوي، ثم أحيا الدولة المذهبية «عباس شاه»؛ المؤسس الفعلي للإمبراطورية ومُكرس الثقافة الصفوية، الذي يُمكن اعتباره أبا روحيا أسطوريا مُلهما للثورة الشيعية الحالية[1]، وهي الإمبراطورية التي ابتدأت على مسرح الوجود السياسي الفعلي عام (٩٠٧هـ/١٥٠١م)؛ إذ كانت فارس قبلها -منذ أن هبت العاصفة المغولية الكاسحة-أشبه شيء بالكُرَة يتنازعها جماعةٌ من أمراء القبائل المغولية والتركمانية المتنافسين، لكن النزاع كان على أشده بين القبائل التركمانية

(١) بعد أن قضى هولاكو على الدولة العباسية (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أسس الدولة الإيلخانية، التي حكمت منطقة فارس ما يربو على نصف قرن (٦٥٦-٧١٣هـ/١٣١٣م)، وتوالى على الحكم سبعة من أحفاده، كانوا يتذبذبون بين البوذية والنصرانية والإسلام، حتى جاء السابع "أوليجايتو خان" (٧٠٤-٧١٣هـ) الذي شب على النصرانية ثم اعتنق التشيُّع، وسمى نفسه "محمد خدابنده (وتعني عبدالله)"، وعمل على نشر المذهب في الأقطار التي كانت تحت يده، ومن بعده أصبح التشيُّع مذهبا للدولة الإيلخانية، التي لم تلبث أن تجزأت بعد وفاته، حتى اجتاح حكم "تيمورلنك" الإقليم، ودانت لحكمه وأحفاده (٧٨٤-٩٠٧هـ/١٣٨٢-١٥٠١م)، إلى أن بدأ الصراع بين الدولة التيمورية وبين قبائل التركمان الغازية من ناحية أذربيجان يخلخل استقرارها ثم أسقطها في نهاية المطاف على يد إسماعيل شاه. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية/ ص٤٩٢-٥٠٦/ دار العلم للملايين- بيروت. ط ١٢/١٩٩٣م؛ ومحمود شاكر: التاريخ الإسلامي؛ التاريخ المعاصر، إيران وأفغانستان، ج١٨/ص١١/ المكتب الإسلامي- بيروت/١٩٩٥). والصورة أعلاه حدود الدولة الصفوة في أوجها عهد عباس شاه.

نفسها[١]، حتى غلب أوزون حسن التركماني؛ رأس قبائل «آق قيونلي» على الأمر، فبسط سلطانه على أذربيجانَ وأرمينيةَ



خارطة الدولة الصفوية

وفارسَ حتى خراسانَ، حيث السلطةُ ما تزال بيد التيموريين، عام (٨٧٣هـ/١٤٦٩م)، وشكل انتصارُه ولادة دولة أردبيل الصوفية[٢]، التي قُيِّض لها أن تكون نواة دولة مذهبية فارسية تمدَّدت بالعنف العسكري شرقاً إلى عمق أفغانستان (تخارستان)، وغرباً إلى عمق القوقاز (خانات القرم) والعراق، وجنوباً إلى حدود باكستان اليوم (مكران بلوشستان)، أما حدودها الشمالية الغربية فكانت تحت رحمة الصراع المرير مع الدولة العثمانية؛ وللتدليل على أن

---

(١) كان بين قبيلتي قره قيونلي (وتعني الخراف أو الشياه السود) وآق قيونلي (وتعني الشياه البيض).

(٢) تقع أردبيل شرقي أذربيجان، تبعد حوالي ٥٦ كيلومترا في الجنوب الغربي من بحر قزوين، الذي كان يُعرف ببحر الخزر آنذاك.

جمهورية «ولاية الفقيه» تقتفي أثر الإمبراطورية الصفوية، حتى في عداواتها المعاصرة، يَجدُر النظر لملخص تاريخ تلك الحقبة المهمة في الضمير الفارسي / الإيراني اليوم.[١]

من التصوُّف إلى التشيُّع

حكم الصفويون لأكثر من قرنين إقليم فارس (٨٩٧-١١٤٧هـ/١٤٩٢-١٧٣٥م)، فبعد أن كانت إيران خاضعة للحكم المغولي بشقَّيه: الإيلخاني والتيموري، ظهرت إلى الوجود دولة الصفويين، التي أنشأها الشاه إسماعيل حفيدُ الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي[٢]، وهو حفيد موسى الكاظم: سابع الأئمة الإثنا عشرية؛ كان صفي الدين ومن بعده ابنه صدر الدين على المذهب السُّني الصوفي، وكذلك كانت الجماعة التي أنشأها في أردبيل في إقليم جيلان، لكن حفيده الخواجة (=الشيخ) عليٌّ[٣]، الذي تولى رئاسة الجماعة عام (٨٠١هـ/١٣٩٩م) تحوَّل إلى الاعتدال الشيعي، وجاء من بعده على رئاسة الجماعة ابنه الخواجة

---

(١) حارب الصفويون الدولة العثمانية صاحبة الخلافة على العالم الإسلامي آنذاك، كما قاتلوا الأوزبك الأفغان، ودعمت الدولة الصفوية الاحتلال البرتغالي لبحر الخليج العربي ضد العثمانيين، ثم تعاونوا مع الإنجليز ضد البرتغاليين، ثم تقلّبوا بين الهولنديين والإنجليز، ثم بقُوا حُلفاء الإنجليز إلى أن سقطت الدولة الصفوية (١١٤٧هـ/١٧٣٥م).

(٢) أحد شيوخ التصوُّف، عاش في الفترة (٦٥٠- ٧٣٥هـ/١٢٥٢-١٣٣٤م)، وقد تزوج من ابنة شيخه زاهد الجيلاني، وحظي بمقام كبير عند رشيد الدين وزير الإلخان التيموري في فارس، وقنع الشيخ صفي الدين، وأعقابه لثلاثة أجيال، بالشهرة التي تمت له كوَليٍّ من الأولياء، ولم يَسعَ إلى سلطة سياسية.

(٣) عاش الخواجه عَلي هذا في زمن تيمورلنك، وقد كان ذائع الصيت وخاصة بعد معركته مع بايزيد العثماني، وقد أقطعه تيمورلنك مقاطعة أردبيل وقفاً عليه وعلى أعقابه من بعده. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية/٤٩٣).

إبراهيم، الذي بدأ يتعصب للمذهب الإثنا عشري، فقاد جماعة الأردبيلي إلى صراع مع السُنة في داغستان، فخلفه ابنه الخواجة حيدر، الذي تولى رئاسة الجماعة عام (٨٥٩هـ/١٤٥٥م)، في وقت لم يكن أتباعه من الفُرس الخُلَّص، بل من التركمان الذين سُمُّوا "القِزِلباشية" (=ذوو الرؤوس الحمراء)[١]، وتزوج الخواجة حيدر من «مارتة» ابنة أوزون حسن، رئيس طائفة «الشياه البيضاء»، التي كانت تحكم شمال غرب إيران (جهة أرمينيا اليوم)، وأمُّها مسيحية ابنةُ ملك مملكة «طرابزون» المسيحية على ساحل البحر الأسود، فاجتمعت قوتا العقيدة والسلاح للخواجة حيدر، الأمير الشيعي المتعصب، لكن المنية اخترمته في إحدى معاركه مع السُنَّة، وخلفه ثلاثة أولاد، أصغرهم إسماعيل، وكانت سِنُّه عاماً واحداً عندما توفي أبوه.



جندي من القِزلباش

في ذاك الوقت كانت الإمبراطورية العثمانية تَمُدُّ سُلطانَها في آسيا الوسطى وشمال شرقي فارس، ما لبث «إسماعيل» أن بدأ مرحلةَ التصدِّي لهم عندما كَبِرَت سِنُّه، وتزعم التركمان الشيعة في حربه، وقد تمكن بفضل شجاعتهم من الاستيلاء على «تبريز»، التي أعلن

---

(١) بعد أن أعاد الخواجه حيدر تنظيم جماعته على أسس جديدة، استحدث لباساً للرأس، عُرف بتاج حيدر الأحمر، ذي الاثنتي عشرة ذؤابة؛ كناية عن الأئمة الاثني عشر، فأطلق عليهم العثمانيون هذا اللقب "قِزل باش"، أي أصحاب الرؤوس الحمراء، وكان أتباع حيدر من أبناء أسرى الحرب الأناضوليين الذين كانوا عبيدا لتيمورلنك. (تاريخ الشعوب الإسلامية/٤٩٥).

نفسه منها «شاهاً» على فارس، في المحرم ٨٩٨ هـ (١٤٩٢م).

لقد صبغ هذا الشابُّ حركةَ الأردبيل السُّنيةَ الأصل، بالصبغة الشيعية المتعصبة، وأطلق عليها الحركة الصَّفَوية (نسبة إلى مؤسسها الشيخ صفي الدين)، وكان الكثير من أتباعه -إلى وقت إعلانه الشاهوية على فارس-على المذهب السُّنّي، لكنه اجتهد في تحويلهم إلى المذهب الإثنا عشري، وتصدى معهم لحرب السلطان سليم الأول العثماني: وهو سلطان شديد المِرَاس والوطأة، وسُنيّا مُتعصبا شديد الحماس لمذهبه الصوفي الحنفي (كان يُلقَّب بـ «ياوز» أي البطَّاش)، فوقع اللقاء «الدموي» في شمال غرب إقليم فارس في سهل «تشالديران» (إلى الشمال الغربي من تبريز)، انتهى بنصر حاسم للعثمانيين، فاحتلوا بعدها تبريز عاصمة شاه إسماعيل؛ لكن سليم الأول اضطر إلى إخلائها والعودة إلى حدود تركيا بسبب فتنة وقعت في صفوف جنوده، وهي الفتنة التي أنقذت الصفويين من انهيار دولتهم على يد العثمانيين، وهم في طور نشأتهم.



السلطان سليم الأول

لفتت حماسة إسماعيل شاه انتباه الأوربيين، وفكروا في الاستعانة بالصفويين الشيعة على العثمانيين السُّنّة الذين كانوا يتقدمون إلى قلب العاصمة الأوربية، فأرسلت إنجلترا سفيراً لمقابلة الأمير طهماسب بن الشاه إسماعيل على قزوين، لكنه طرد السفير عندما علم أنه «نصراني» يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين، في

وقت كانت دولة الصفويين تتجه صوب الضعف الشديد؛ لأن رؤساء الجند من التركمان طمعوا وتقاسموا السلطة في إماراتهم، تاركين إسماعيل شاه يواجه تبعات صراعه مع العثمانيين.



الشاه عباس الصفوي

وما إن تولى عباس شاه مقاليد الحكم عام (٩٩٥هـ/١٥٨٧م)، حتى تيقّن أن وضع دولته صعب للغاية، فقد واجه في مستهل حياته السياسية عَدُوَّين، هما: الأوزبك الأفغان من الشرق، والعثمانيين الأتراك من الغرب، ولما لم يكن قادراً على المجابهة من الخلف والأمام في ذات الوقت، عقد صُلحاً مع العثمانيين: الأكثر قوةً وجبروتاً عام (٩٩٨هـ/١٥٩٠م)، تنازل بموجبه عن آذربيجان[1] والكرج[2]، وجزءٍ من لُورِستان[3]، مع التعهد بالكَفِّ عن سبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، وشتم أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنهم) في أراضي مملكته، وارتهن العثمانيون ابنه «حيدر ميرزا» كضمانة التزام في إسطنبول؛ لأن الأتراك لم يكونوا يثقون بعهود عباس شاه.

ما لبث عباس شاه – بعد القضاء على تهديد الأوزبك - أن أعاد

---

(١) آذربيجان اليوم هي جمهورية آذربيجان المستقلة عن الاتحاد السوفييتي السابق بالإضافة إلى محافظتين كبيرتين في شمال غربي إيران هما آذربيجان شرق وآذربيجان غرب. (انظر الخريطة ص ٨٤)

(٢) الكرج هي جورجيا اليوم.

(٣) لورستان (ومركزها خُرَّم أباد) تقع إلى الشرق من كرمانشاه وإلى الشمال من منطقة خوزستان (عرب ستان أو الأهواز)، وإلى الجنوب من هَمَدان. (انظر الخريطة ص ٨٤).

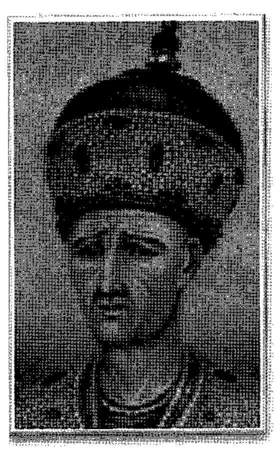
تجميع الصفوف[1]، وانتشال الدولة الصفوية من وهدتها، فعقد اتفاقية تعاون عسكري مع الإنجليز، عن طريق ضابط إنجليزي يُدعى أنتوني شيرلي، وسمح لهم بإعادة تأهيل جيشه، وإنشاء فِرَق مُحاربةٍ على النظام وبالأسلحة الحديثة، تتكون من "الطوفانجية" (=سلاح الفرسان/ المُشاة)، و"الطوبجية" (=سلاح المدفعية)، و"القلار" (=الفرقة الخاصة/ الكوماندوز)، التي صارت تضاهي "الإنكشارية" العثمانية، وكفلت تلك التكتيكات صمود عباس شاه أمام ضربات العثمانيين، كما استعان عباس شاه بخبراء إنجليز في شؤون الحرب، وتمكن من تحويل فارس إلى قوة عسكرية تَحسِبُ لها إسطنبول ألفَ حساب، وبدأت عملية تصفية الحسابات مع العثمانيين التي كانت مُنشغلة في حروبها ضد أوربا، حيث كانت تصطدم وقتها بالملكة النمساوية.

لقد تلاقت الرغبة الإنجليزية بطرد البرتغاليين من بحر الخليج العربي؛ عَصَبِ التجارة البحرية آنذاك، بالرغبة الصفوية المستميتة لقهر العثمانيين وتوطيد ملكهم، فساعدت إنجلترا عباس شاه على تطوير قدراته العسكرية، فاستطاع فعلاً عام (٩٨٠هـ/١٦٠٢م) طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز -بوابة الخليج العربي، وإشغال القوات العثمانية من الجبهات الخلفية

---

(١) لإيران تاريخ حافل مع الأفغان، وخاصة الأوزبك منهم؛ فهم الذين قضوا على الدولة الصفوية نهائياً بعد احتلال بندر عباس عام ١٧٢٠م، ومن ثم حاصروا أصفهان مدة ثلاثة أشهر عام ١٧٢٣م، فاحتلوها وقتلوا آخر حكام الدولة الصفوية الشاه حسين ومعظم أفراد عائلته، واستمر حكم الأفغان -في حقبة شديدة الاضطراب للدولة الفارسية- سبع سنين إلى عام ١٧٣٠م؛ وهي عشر سنوات لم تغادر العقليةَ الإيرانية إلى اليوم.

عن توسعها غربا في العمق الأوربي، وما توفي الشاه عباس[١] حتى تحوَّلت الإمبراطورية الصَّفَوية إلى قوة إقليمية ضخمة، أسسها بمَلَكَاتِه ومواهبِه السياسية، إلى جانب القسوة المُفرطة التي اشتُهر بها، حتى كان يُلقب من سُنة إيران والعراق بـ«عباس السَّفاح»، فلم يرث خُلفاؤه منه إلا القسوة.


نادر شاه طهماسب

أسرع التدهوُر إلى البيت الصفوي، فاستردَّ مُراد الرابع العثماني العراقَ بعاصمته بغداد، واستمر التدهور إلى مداه عام (١١٣٦هـ/١٧٢٤م) بقرار الأستانة تقاسم ولايات الشمال كإقطاعيات عثمانية، ما لبث بعدها إعلان وفاة الدولة الصفوية عام (١١٤٥هـ/١٧٣٥م) عندما اعتلى الشاه نادر طهماسب قولي خان الأفشاري (=طهماسب الأول) العرش الفارسي، التي استمرت أربعة عشر عاما فقط (١١٤٥-١١٥٩هـ/١٧٣٥-١٧٤٩م)، وقد قام بحملات تخريبية في أفغانستان وشمال الهند لحساب الإنجليز أو بالتعاون معهم، حيث كان الخطر الحقيقي على فارس يأتي من قبل الإمبراطورية الروسية لا من المغولية الهندية أو الأفغانية الأوزبكية، وقد هيمن الإنجليز على التجارة الفارسية وقتذاك -كضريبة تعاون-واستمرت على ذلك إلى أن تقاسمت مع الروس الدولة الفارسية، بمقتضى معاهدة فُرضت على إيران (في ١٩٠٧/٨/٣١)، سرعان ما تخلصت فارس منها، بعد اتفاق الإنجليز

(١) توفي في يناير ١٦٢٩م (١٠٠٧هـ) بعد حُكم دام ٤٢ عاما.

والروس على الانسحاب منها.

بعد دولة الأفشار حكم فارس القاجاريون، وأولهم السلطان محمد شاه، وآخرهم أحمد ميرزا، بعدها جاءت الدولة البهلوية، وهي آخر «الشاهات» التي استمرت إلى عام ١٩٧٩م، حين قامت الثورة الإسلامية الإيرانية، وهي كلها دول شيعية إثنا عشرية.(١)

ورقة الصراع الطائفي

من الملاحظ أن للمخزون التاريخي دوراً جوهرياً في تأزيم أو تلطيف الصراع المذهبي في المنطقة، القادر على تحويل الشعوب إلى ميليشيات فكرية، تتخندق على ضفتي الانشطار الطائفي، وتخضع لموازين قوى الجبهتين السياسية.

فالصراع السياسي كان وراء حركة الثقفنة المذهبية وأدبياتها الطائفية؛ إذ إن ملحمة الصراع العثماني الصفوي (دُشنت بدايتها في معركة «تشالديران» الشهيرة في أغسطس سنة ١٥١٤م/٩١٩هـ)، كان دافع السلطان سليم الأول فيها تحجيم طموح التوسع الإمبراطوري الصفوية، وبالمقابل بالغ الشاه إسماعيل في مظاهر تشيُّعه السياسي، فقمع السنة وفرض المذهب في فارس، وأسس أيديولوجيا السياسة بالاستعانة بعلماء جبل عامل، وسعى لطلب

---

(١) تنظر المراجع التالية: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية/ ص٤٩٢-٥٠٦/ دار العلم للملايين- بيروت. ط ١٢/١٩٩٣م؛ حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام/ الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧؛ والشرق الإسلامي في العصر الحديث/ مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٢؛ محمد سهيل طقوش: العثمانيون من القيام إلى الانقلاب على الخلافة/ دار بيروت المحروسة، ١٩٩٥؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، التاريخ المعاصر: إيران وأفغانستان، المجلد ١٨/ المكتب الإسلامي، ١٩٩٥؛ علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ مطبعة أمير بقم، ١٩٥٢.

إقليم العراق حيث «العتبات المقدسة»؛ لكن الأمر المثير في القصة، أن والد السلطان سليم الأول «بايزيد» كان يُراسل الشاه الصفوي، لتضلعه وحُبه الشعرَ والفلسفة الفارسية، ولم يكن يَشعر بوجوب منازلة الصفويين، ولما تواترت الأنباء عن القمع الذي يقوم به الشاه إسماعيل ضد أهل السنة، أخذ في مناصحته بالرفق وعدم الاعتداء؛ بحكم مسؤولية الخليفة العثماني عن رعيته، لكن ابنه السلطان سليم الأول لم يكن يرى الأمر كوالده، فكان تقديره أن الدولة الصفوية تشكل خطراً حقيقياً على الإمبراطورية العثمانية من الجهة الشرقية، وأن حماسة الشاه إسماعيل في نشر الصيغة المتشددة من التشيع تأتي في إطار سعيه إلى توفير أرضية ثقافية ملائمة لتمدد الدولة الصفوية، باستخدام المذهب الشيعي كذراع ديمغرافي.

وهنا تحديد يشتبك السياسي بالديني؛ إذ من الأسباب الغائرة في الضمير الإمبراطوري السياسي، خلق هوية ثقافية للإمبراطورية الجديدة؛ هويةٍ تقوم على التمايُز المذهبي والاختلاف في المرجعية التاريخية والذاكرة المحلية؛ لأجل استكمال أدوات الهوية المختلفة، فالشاه إسماعيل يتحدر من سلالة تركمانية، تشترك في إثنيتها مع السلالة العثمانية، لكن هذه الأخيرة تتفوق عليها بلقب «الخلافة» على مسلمين العالم، فكان لا بد من التمايز والمغايرة، ليستقيم له الانفراد عن الخلافة العثمانية «التركمانية» بمذهب له أتباع مغايرون عن عموم المسلمين، والتشيُّع لآل البيت هو الأكثر شيوعاً في تلك المناطق، والأقرب إلى المزاج العام في الجهة الشرقية من العالم الإسلامي آنذاك.

وعلى كل حال، نَجَحَ العثمانيون في محاصرة التَمَدُّدَ الجغرافي

الصفويَّ في حدوده الحالية، لكن جبهة الصراع المفتوحة ظلت في العراق، فمرةً يدخل الشاه الصفوي إلى بغداد فيُنكِّلَ بالسُّنّة ويُعمِل فيهم الذبح، ويُعمِّر قبور الأولياء من آل البيت، ويُدمِّر قبرَ أبي حنيفة النعمان[1]؛ ومرةً يدخل السلطان العثماني فيُنكِّل بالشيعة المتعاونين مع الفرس، ويُعمِل في بعضهم الذبح نكاية بالصفويين (باستثناء ولاية السلطان سليمان القانوني)، ويُعمِّرَ قبر أبي حنيفة النعمان بأحسن مما كان... وهكذا دواليك!!، حتى شُحن الضمير العراقي بالأحقاد والضغائن، وينظر أتباع كل مذهب إلى خصمه نظرة البغضاء والعداء الكامن، وأخذ ينظر الشيعةُ إلى الدولة الصفوية على أنها المُنقِذ فيُوالونها، وبمثلها يرى السنةُ الدولةَ العثمانية؛ لكن الطائفتين العراقيتين ينظران إلى أنهما أصبحا فريسة أطماع سياسية ابتُلُوا بها، وانعكس هذا حتى على أمثالهم الدارجة: "بين العجم والروم (= العثمانيين) بلوة ابتلينا"، وبالفعل فقد كان الصراع بين «العجم والروم» قدرا ما تزال تحياه العراق إلى اليوم.[2]

إن التشيُّعَ بالنسبة لفارس منذ إسماعيل شاه -أيا كان النظام الحاكم فيها، حتى ولو كان شبه علماني-هو قناة توسُّع سياسي قومي إلى خارج الحدود الفارسية، وخاصة في العراق، ومن هنا تأتي أهمية الأصوات الشيعية العروبية الوطنية، التي تؤكد دوماً على

---

(١) لقد روى التاريخ حوادث مُقززة ارتكبها الصفويون بحق قبر الإمام أبي حنيفة النعمان تحديداً، الذي يَرقد اليوم في منطقة الأعظمية، حيث أغلق عباس شاه الصفوي كل الطرق المؤدية إلى القبر، وجعله مكبّاً للنفايات ومصرفاً للمجاري، حتى أصبح القبر بمثابة مجمع تصريف صحي؛ إمعاناً في إذلال مرجعية الدولة العثمانية، التي تنتمي فقهياً إلى المذهب الحنفي.

(٢) علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ١٢٨-١٣١.

التمييز بين التشيع العربي «العلوي» والتشيع الفارسي «الصفوي»، بصرف النظر عن تجسيد هذا الفرق على الأرض؛ فيذكر معروف الرصافي في كتابه «الرسالة البغدادية»، كيف كان شاه بهلوي -الذي يمثِّل «أتاتورك الإيرانيين» -شديد النُّصرة لحوزة النجف وللخط الشيعي المرتبط بإيران؛ لأسباب سياسية بحتة، مع محاربته العلنية للمراجع الشيعية في الداخل؛ أي أن الأمر برمته يشتعل بمحرك الطموح السياسي، حتى ولو بدا ذا صبغة دينية في مظاهره.

هذا الأمر لم يكن محصوراً بالصفويين، فالسلاطين العثمانيين حاربوا الصفويين بكل الأوراق المتاحة، واشتدت في تلك المرحلة من الصراع بين الصفويين والعثمانيين حرب الفتاوى المتبادلة لتأليب الرأي العام، وتبرير الحروب المذهبية، فكانت حرباً مَنهجية؛ ولذلك فإن أكثر الأدبيات الشيعية المتطرفة، التي «ثقفنت» التشيع الفارسي الصفوي ومنحته موسوعاته الكبرى -مثل «بحار الأنوار» للمجلسي: ذات المجلدات التي ناهزت المائة - تنتمي لتلك الحقبة، وهو أمر لو مَنَحَه المجلسيُّ كل عمره لما أطاق كتابته، على اعتبار أن «بحار الأنوار» ليس إلا كتاباً واحداً من كتب المجلسي، الأمر الذي يَدُلُّ على وجود جُهد مؤسسات الدولة، كما ألَمَّح إلى ذلك د. علي الوردي، في دراسته عن المجتمع العراقي.

وفي تلك الفترة تواترت فتاوى شيوخ الإسلام في «الآستانة» ضد الشيعة، تبعاً لسخونة المواجهة أو برودتها بين السلطان والشاه، وقد ذكر د. علي الوردي كيف أنه في إحدى فترات الهدنة خرجت فتوى من الآستانة ليّنة الجانب وتتحدث عن الشيعة بلغة وُدية، ثم لما خَرِبَت الهدنة وتوتر الوضع مجدداً بين الطرفين، اشتعلت حرب الفتاوى معها كَرَّةً أخرى.

وفي وقتنا الحاضر، تحمس لمشروع التقريب بين السنة والشيعة في المقام الأول شيوخ الأزهر في مصر مع جماعة الإخوان، حينما كان التَّشَيُّع لا يُمثل هوية سياسية بالنسبة لشيوخ الأزهر كالشيخ شلتوت، أو يُمثل حليفاً سياسياً في الجماعات ذات النهج الحركي كجماعة «نواب صفوي»(١)، الذي ألقى محاضرة شهيرة برعاية الإخوان في القاهرة وسوريا في الخمسينيات.

وحينما نجحت الثورة الخمينية «الحركية» نظر لها الإخوان المسلمون بإعجاب وإكبار(٢)، لكن حينما أصبحت «الثورة» تريد تصديرَ نموذجها إلى خارج حدودها الجغرافية، واندلعت حرب ساخنة وباردة بين دول الخليج العربي والعراق من طرف، وبين إيران الخميني من طرف آخر، تراجع مشروع «التقريب» المذهبي وتقدم مشروع «المواجهة»، وتقاطرت الأدبياتُ المتبادلة التي تهاجم الطرف

---

(١) سيد مجتبى سيد جواد نواب صفوي، أعدم وعدد من رفاقه عام ١٩٥٦ بتهمة اغتيال العالم الكسروي، بعد عشر سنوات من ارتكابهم جريمة الاغتيال، كان نواب صفوي يرى ضرورة الاستفادة من إمكانيات الإخوان المسلمين التنظيمية والثقافية للقيام بحركة ضد نظام الشاه، وبالمقابل كان الإخوان ينظرون إلى صفوي من زاوية مقاومته لنظام الشاه فقط، وقد زار القاهرة في يناير سنة ١٩٥٤، والتقى قيادة الجماعة التي استقبلته بحرارة بالغة، وكان المتحدث الرئيسي في لقاء جماهيري نظمته الجماعة في بجامعة القاهرة، كما زار سوريا والتقى المراقب العام للإخوان المسلمين الدكتور مصطفى السباعي، الذي اشتكى له من انضمام شباب الشيعة إلى الحركات العلمانية والقومية، فصعد نواب صفوي إلى أحد المنابر، وقال أمام حشد من الشيعة والسنة: "من أراد أن يكون جعفرياً حقيقياً فلينضم إلى صفوف الإخوان المسلمين!".

(٢) ننصح بالاطلاع على نص مقابلة يوسف ندا: مفوض العلاقات السياسية الدولية لجماعة الإخوان المسلمين، ورئيس مجلس إدارة بنك التقوى، وخبر وفود الإخوان لطهران في برناج شاهد على العصر، على موقع قناة الجزيرة.

الآخر، مستندة الى إرثِ الصراع الطويل بين السنة والشيعة، ولكن بوصول «رفسنجاني» إلى الحكم، في وقت تعِبَ فيه رجال الثورة، التي أخذت في التحوَّل إلى دولة، عادت «ثقافة التقريب» بين السنة والشيعة، واستمر حتى اندلعت مشكلة العراق الأخيرة، ودخلت إيران «أحمدي نجاد» بقوة على الخط وألقت بظلها على رجالها هناك، وبزغ «الهلال الشيعي» بالمعنى السياسي للتشيع، فانبعثت المعارك الماضيةُ من مراقدها مجدداً.. والتراجيديا الكوميدية في هذا المشهد تكرار أساليب الماضي بحذافيرها، والمثير للأسف أكثر أن هذه الأساليب دائما تنجح وتفعل أفاعيلها بين شعوب المنطقة التي يتأجج بينها الصراع على مختلف أشكاله، بين حرب باردة وأخرى تسيل لها الدماء بوحشية!!

هذه حقيقة لا يسع أي باحث القفز عليها ولو استنكرها؛ إذ المذهب الشيعي كله مذهب سياسي، يرمي إلى طموح سياسي باسم آل البيت؛ مدفوع بعقيدة المظلومية الأسطورية، وتحولت إيران في وقتنا المعاصر إلى محور ارتكاز، ومرساة اتزان تؤمِّنُ لقواعدها الشعبية غطاء أيديولوجياً وسياسياً وعسكرياً، ويتضح للمتابع وجود حزمة أيديولوجيا عقائدية وثقافية وسياسية للجمهورية الثائرة، تُفرز ضربات إستراتيجية وتكتيكية متتالية في محيطها الجغرافي، لم تهدأ منذ اندلاع الثورة الخمينية عام ١٩٧٩م، فهي لا تعبأ بالمهادنات السياسية لأنها لا تعتمد عليها فقط، فهي -كما سلف- تجيد القفز على حبلي الديني والسياسي بمهارة عالية، وبين المشاكسة الإقليمية والمشاغبة الشعبية كأوراق ضغط يمكن التنصل من تبعاتها بكل سهولة.

وبمقابل المنهجية الإيرانية المستمرة ينكشف تذبذب خصومها

التقليديين (=الدول العربية السُّنية) الذين لم يُكوِّنوا بعدُ برنامجهم المضاد أو المدافع، فتتحول تحركاتهم بمجموعهم إلى رَدَّات فعل غير متزامنة ولا متوازنة، تحكمها المصلحة السياسية الفردية، والظروف الإقليمية والدولية، وليس للمؤسسات الدينية أو المعرفية فيها إلا موقع الموافقة والمتابعة (=الذيل).

وعلى الرغم من وجود مؤسسات بحث رصينة تدرس الظاهرة بأبعادها العقائدية والتاريخية والسياسية، إلا أنها غير مكتملة النفع؛ نظرا لاقتصار نتاجها على نُخَبٍ ليست صاحبة قرار، كما تقتلها التجزيئية المكانية؛ إذ تعمل في محيطها الجغرافي، ويعوزها التمويل المادي.

ومن هنا تتحكم السياسة بالمعرفة، التي تتحوَّل إلى أسلحة مواجهة إعلامية لمرامٍ سياسية صرفة.

* * *

ثالثا: البُعد الإستراتيجي المَصلحي

لا يُخفِي أيُّ معاصرٍ للثورة الخمينية أو مُراقبٍ للنشاط السياسي الفارسي إعجابَه بذكاء الإيرانيين وحصافتهم وصلابتهم، وهذا شأن الأمم التي تريدُ النهوضَ والتقدُّم، وهو شأن أيِّ أُمة تَعتدُّ بماضيها، وتعتبرُه مَصدَرَ إلهام لمستقبلها؛ فلقد وَظَّفتْ إيرانُ الثوريةُ كُلَّ طاقاتها - كدولة ثيوقراطية (= دينية) - لخدمة أيديولوجيتها وأهدافها التي تؤمن بها، حتى لو انتهجت البراغماتية الميكيافيلية..

صحيحٌ أن المؤسسين الأوائل -وعلى رأسهم الخميني- استفادوا من الفكر التنظيمي الإخواني -الذي عكف السيد علي خامنئي على ترجمة كتب وأفكار الإخوان[1]-، لكنهم استفادوا أكثر من المنهجية الصهيونية في عملية الصراع من أجل البقاء، والإبقاء على قوتهم ونفوذهم في مُحيطٍ سياسي عَدَائي مُتحفِّز، وليس هذا عيبا على أي أمة تستنسخ منهجيةَ عَدُوِّها في النهوض والتسيُّد؛ خدمةً لأهداف أسمى تعتقدها، وإن أعلى الدُوَل شأنا وأقواها شوكةً وأصلبَها عُوداً تلك التي تتأسس على عقيدةٍ تَشُدُّ من قوتها، وتَشحذُ هِمَّةَ أفرادها، وتُحيل المجتمعَ كُلَّهُ إلى نسيجٍ مُتجانس يتحركُ بإيقاع واحد.. وهذا ما فعلته إيران بكل جدارة واقتدار.

تزخر المكتبة العربية والأجنبية والمواقع الإلكترونية بوثائقَ ومدونات عن خطط وأجندات وَضَعَتها حكومةُ «ملالي قُمّ» ، لكن

---

(١) انظر سيرة علي خامنئي على موسوعة www.wikipedia.com

-على الرغم من الجدال الدائر حولها نفيا وإثباتا- كُلَّها تَصبُّ فيما قيل (أي أن المسألة ليست هنا منطقاً وتحليلاً، بل تحسساً لشواهد واقع وتتبعا لتاريخ)، فالسياسة -في عالم اليوم- لا تخدمُ الضعيفَ، ولا ترحَمُ القويَ، فما الظن بدولة ترى أن الواجبَ الديني يُحتِّمُ عليها التمهيدَ لخروج خليفةِ الأرض «المنتظر» ، الذي سيملأ الأرض عَدلا بعدما مُلأت جَوراً، ويُقيمُ دولةَ «آل البيت» التي طال انتظارُها لأكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة، ويُصحح خيانة «صَنَمَي قريش» (= أبي بكر وعمر) الأولى بسلب حقِّ الإمامة من علي بن أبي طالب، وتآمر العرب (= أكثر الصحابة) على ذلك الظلم.

ويقترن البُعد المصلحي في الإستراتيجية الإيرانية اليوم بالوجود الأمريكي ونفوذه في المنطقة، فمعلوم أن للنظام الفارسي وجهين سياسيين في تعامله مع القضايا المُلحة، وجهة للثورة (= المرشد الأعلى) وآخر للسياسة (= الرئيس)، التي تخضع للأولى حتماً، فسياسة إيران الخارجية تتسم بالبراغماتية، ومرونة مدهشة مع فن بارع في استثمار الوقت لصالحها في أي مفاوضات تخوضها، في حين تتسم سياستها الداخلية بالتزمُّت والتخشُّب المِفصَلي، إلى درجة تدعو للاستغراب، وخاصة أنها ترتكز على عامل الإدهاش في المواقف والعاطفة الدينية، لكسب تعاطف العالم الإسلامي، لكن وثيقة واحدة كفيلة بعامل إدهاش منقطع النظير، تكشفت فصولها في المرحلة الحالية في اللعب مع إدارة المحافظين الجدد الأمريكية، ومن سيأتي بعدها.. (١)

(١) كتب هذا البحث في نوفمبر ٢٠٠٨م، ولم تُحسم الانتخابات الأمريكية لصالح الديمقراطيين بقيادة باراك أوباما.

محاولة فهم للتقارب الفارسي الأمريكي

إن إيران لا تستطيع تجاوز هذه الضرورة الحيوية لبقائها -كدولة لها وزنها الإقليمي وبُعدها العقائدي-، ومن ثم تصبح مسألة التقارب مع «الغرب» إحدى ضرورات السياسة الإستراتيجية لا التكتيكية في السياسة الإيرانية، ولهذه السياسة دوافعها المنطقية التي يفقهها الجانبان:

١. أهمية إيران الإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة؛ فهي من أكبر دول المنطقة سكانا، فضلاً عن كونها دولة نفطية كبيرة تملك ثاني أكبر احتياطي للغاز الطبيعي في العالم، كما تتزايد هذه الأهمية بالنظر إلى الأهمية المتزايدة لنفط بحر قزوين ووسط آسيا في ضوء التقدير الأمريكي الرسمي لاحتياجات العالم من البترول، الذي يتوقع أن يرتفع الطلب العالمي عليه (من ٧٣ مليون برميل يوميا عام ١٩٩٧م إلى ١٠٥ ملايين برميل يوميا في عام ٢٠١٥م)، حيث من التوقع أن يصل استهلاك الولايات المتحدة إلى ١٨ مليون برميل يوميا، ويُعد الطريق الذي يَمُرُّ بإيران -لنقل هذا البترول إلى الخارج-من أقل الطرق تكلفة اقتصادياً، هذا من ناحية؛ من ناحية أخرى تدرك إيران أن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم حتى الآن، وبالتالي فإن موقعها الدولي والإقليمي سيواجه صعوبات كبيرة في ظل القطيعة الأمريكية المعلنة، فالولايات المتحدة مَعبَرٌ إلزامي في الطريق إلى مجلس الأمن وصندوق النقد الدولي وصولا إلى مرور أنابيب النفط، كما أنها تتحكم في ممرات مهمة لنقل التكنولوجيا المطلوبة بشدة لمشروعات التنمية وخطط التسليح الوطنية؛ وقد تأكد ذلك بعد نجاح ضغوطها - إلى حَدٍّ ما - على روسيا والصين لتقليل التعاون

التكنولوجي والنووي مع إيران.

٢. عدم تحقيق السياسات السابقة للدولتين تجاه بعضهما البعض لأهدافها، فقد أخفقت السياسة الأمريكية (ربما كان المراد لها الإخفاق) في ضرب الثورة الإسلامية عسكريا من خلال دعمها للعراق، كما أخفقت العقوبات والحظر الاقتصادي عليها بدليل أن إيران حققت مستويات تنمية عالية خلال سنوات الحصار وبقدرات ذاتية، واستطاعت أن تخترق هذا الحصار الاقتصادي أوربياً وآسيوياً، كما أخفقت الولايات المتحدة أيضاً في نهج العزل السياسي لإيران وإنهارت سياسة الاحتواء المزدوج؛ ولعل من الأمثلة على ذلك الحضور غير المتوقع من جانب الدول الإسلامية والعربية للقمة الإسلامية التي عقدت في طهران في أواخر عام ١٩٩٧ وما تلاها من أعوام، والذي مثل إشارة على سقوط عزلة إيران، وإذا ما أضيف إلى ذلك التطورات الإيجابية التي حدثت في علاقات إيران بدول الخليج العربي في الآونة الأخيرة وقيامهما بتوقيع اتفاقيات تعاون متعددة الجوانب، يمكن تصور مدى إخفاق هذه السياسة؛ ومن ناحية أخرى لم تفلح الجهود الإيرانية التي أعقبت قيام ثورتها الإسلامية في سعيها لإرضاء عقيدتها التاريخية للسيطرة ومد النفوذ، تارة تحت شعار «تصدير الثورة» وتارة تحت شعار «نصرة المستضعفين» في لبنان وفلسطين والعراق وغيرها، وبدأت تتبين أنه لا مناص من اتباع سياسة براغماتية تأخذ في اعتبارها المصالح الحيوية للغرب والولايات المتحدة ودورهما في المنطقة، وتغيير النمط الوحيد لتصدير الثورة المرتكز على العنف.

٣. أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تدرك أن إستراتيجيتها للسيطرة على مناطق الطاقة في الخليج العربي

التوزيع الاثني / العرقي والمذهبي في إيران اليوم

وآسيا الوسطى ستظل تفتقر إلى الاستقرار في غياب التفاهم مع إيران وحفظ دورها الإقليمي بذراعَيه الغربي (في الخليج العربي والعراق) والشمال الشرقي (في آسيا الوسطى منها أفغانستان وباكستان)، فمن جهة لم تُثبت تركيا قدرتها على حسم الوضع في شمال العراق إلى الآن، بعيداً عن أي دور لطهرانَ ودمشق، كما لم تستطع قطع أوصال التحالف بين إيران وسوريا وإضعاف الأخيرة، بما يجعلها تتقبل السياسة الإسرائيلية في تسوية – ما يُعرف بمسألة «الشرق الأوسطية» المأزومة، كما لم تثبت تركيا قدرتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية على إدخال الجمهوريات

الإسلامية السوفيتية السابقة تحت جناحيها، ومن جهة أخرى لم تثبت باكستان قدرتها أيضا على حسم الأوضاع في أفغانستان ووزيرستان، حتى بعد تنصيب زرداري وإسقاط مُشرَّف؛ وعلى الجانب الآخر تشعر إيران بحاجتها إلى التنسيق مع الولايات المتحدة بشأن إقليم ناجورنوكاراباخ المُتَنَازَع عليه بين أذربيجان وأرمينيا؛ لتأثيره الشديد على الأوضاع الداخلية في إيران، فالولايات المتحدة تدعم الأذَرَيين؛ الأمر الذي من شأنه أن يُحقق انتصارَهم، وهو ما تخشاه إيران؛ لأن هذا الانتصار من شأنه إشعال الحمى القومية في أوساط الأذريين (نسبة إلى آذربيجان) المقيمين في إيران، الذين يَبلغ عددهم ١٥ مليوناً تقريباً، ويشكلون حوالي ٢٥٪ من السكان، وهو ما قد يكون شرارة تهدد بتفكك الدولة الإيرانية المكتظة بالقوميات والإثنيات المختلفة.

٤. إن إيران تعاني وضعا اقتصاديا مُتدهورا نَتَجَ عن الهبوط الحاد في أسعار النفط فترة التسعينيات، ونهاية العقد الأول من الألفية الثالثة، التي وصلت إلى معدلات تاريخية لم يَسبق لها مثيل من الانخفاض، حيث هبط سعر البرميل من ٢٢ دولارا في أغسطس إلى أقل من ١٤ دولاراً في أكتوبر وإلى أقل من ١٠ دولارات في ديسمبر ١٩٩٨م، ويهبط اليوم إلى أقل من ٤٠ دولاراً؛ مما يؤدي إلى الإضرار الشديد بالاقتصاد الإيراني، ولا تكفي الشراكة التجارية مع أوروبا واليابان فقط لإنقاذ اقتصادها وسداد ديونها، وسيكون التقارب مع الولايات المتحدة مفيداً لإيران سواء في توفير الاستثمارات اللازمة لإحداث التنمية فيها، أو التنسيق بشأن تحديد سعر عادل للبترول؛ الذي لعبت بورقته في تكتيكاتها السياسية عندما لوحت أمريكا إلى إمكانية توجيه ضربة عسكرية

تكتيكية منتصف ٢٠٠٧، فردت إيران بضربات تكتيكية سياسية، وكثفت حملة تصريحاتها بتوجيه صواريخها إلى مصافي النفط الخليج العربية وتحريك خلاياها النائمة (ميليشيات) هناك، والتهديد بغلق مضيق هرمز في وجه ناقلات النفط، فقفز سعر برميل النفط (صيف ٢٠٠٨) إلى أكثر من ١٥٠ دولاراً للبرميل، ثم تدهور إلى أقل من أربعين دولاراً نهاية العام ٢٠٠٨، مع دخول العالم مرحلة الركود الاقتصادي الكبرى.

٥. لإيران والولايات المتحدة مصالح متوازية في المساعدة على إعادة الاستقرار في أفغانستان والعراق، وخاصة أن إيران أحسنت استثمار حماقات إدارة بوش في حربه العسكرية على البلدين، فقدمت له التسهيلات الضرورية أولا، ومن ثم تغلغلت مخابراتها وميليشياتها في قلب العمل العسكري، ومن ثم السياسي، ما حوَّلها إلى رقم يصعب تجاوزه في أي تسوية تريد أمريكا التعاطي معها، كما تعرف إيران من جهتها أن اليد العليا في هذين الإقليمين للولايات المتحدة، وقد أهدرت المليارات لوضع اليد عليهما، ولا يمكن البتة التنازل عنها لعيون إيران أو الرضوخ لتهديداتها المتكررة، وخاصة مع عدم استقرار الإقليمين وتحوُّل إيران إلى عامل فشل لا نصر في الأجندة الأمريكية العسكرية.

فرصة اقتسام السلطة في الخليج العربي

إن بوادر اقتسام السلطة (سياسية عسكرية) الفعلية في الخليج العربي بين الأمريكان والإيرانيين بادية، وهي فرصة ذهبية لا يَسَعُ إيران تضييعها؛ وكل التعنُّت والتهديد الفارسي باستخدام أوراقها النووية والإقليمية (في لبنان والعراق وفلسطين والخليج العربي)،

كان ردا على تجاهل الإدارة الأمريكية للمساومات الإيرانية منذ العام ٢٠٠١م، وللعرض السري الذي تقدمت به إيران بُعيد سقوط النظام العراقي (٢٠٠٣م)، مقابل الخدمات «الجليلة» التي أدَّتها لأميركا في احتلال أفغانستان والعراق؛ التي تتلخص في: "صراحة الاعتراف بإسرائيل والتنازل عن النووي، ووقف دعم حزب الله، بمقابل مَنحِ الوصايةِ على الخليج العربي لإيران، والاعتراف بها كقوة إقليمية شرعية"؛ وقد تم التكتم الشديد عليها من الجانب الفارسي والأميركي حتى لا تتحول إلى فضحية «إيران-غيت» ثانية؛ ويمكن رصد حركة تطوُّر العلاقات الأمريكية الإيرانية بعد ١١ / ٩ على النحو الآتي:

١. كانت أمريكا تفكّر في فتح علاقات تعاون مع إيران منذ الانقلاب الخميني، وعمل خبراء سياسيون مُتعاقبون على استكشاف ذلك عبر تخفيف العقوبات الاقتصادية المفروضة، كخطوة على طريق رسم سياسة جديدة تجاه إيران الثورية، لكن هجمات ١١ / ٩ بعثرت كل الأوراق المُعدّة..

٢. بعد أسابيع قليلة اتصلت إيران بالولايات المتحدة بطريق غير مباشر عارضة مساعداتها في القضاء على القاعدة؛ وأبلغ الإيرانيون الأمريكان وقتها أنهم يكرهون القاعدة أكثر منهم، وأن لإيران مصلحة وثأراً في القضاء عليها، وأنه بإمكان طهران أن تساعد الولايات المتحدة -عبر القنوات والمصادر المهمة التي تمتلكها- في أفغانستان، والتي من الممكن أن تكون مفيدة لها في هذا الموضوع إذا أراد الأميركيون التعاون؛ وقدمت إيران عَرضها في شكل بادرة حسن نوايا، فقد كانت من أوائل حكومات العالم التي دانت الهجوم، وسارع الرئيس الفارسي(محمد خاتمي) بإدانة التفجيرات

بعد ساعات فقط من وقوعها، ولأول مرة منذ قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، تم إيقاف شعار «الموت لأميركا» في خُطَب الجمعة، ومن ثمَّ قام ١٦٥ عضوا من أعضاء مجلس الشورى، البالغ عدده ٢٩٠، بالتوقيع على وثيقة أعربوا فيها عن تعاطفهم مع الشعب الأميركي، وطالبوا بحملة دولية لمكافحة الإرهاب!!..

٣. تلتها سلسلة اجتماعات سرية مع مسؤولين رسميين إيرانيين في جنيف، بغرض الوقوف على ما يمكن لإيران تقديمه من مساعدة في الهجوم المرتقب على أفغانستان، وبالفعل قدمت إيران معلومات وبيانات وإحداثيات لأهم المواقع التي يجب عليهم قصفها في أفغانستان، كما عرضت على الأميركيين الكثيرمن النصائح بشأن التفاوض مع المجموعات العرقية الرئيسة في البلاد، فضلاً عن المساعدات اللوجستية الإرشادية على طول الحدود.

٤. ما إن بدأ الأمريكان مرحلة تنصيب حكومة جديدة للبلد الذي احتلته، أخذت تشعر بضغط الفصائل الجهادية وصلابتها، طرحت إيران نفسها –بلسان د. محسن رضائي: الأمين العام لمجمع تشخيص مصلحة النظام في إيران (في لقاء على قناة الجزيرة)-كمُخَلِّص لأمريكا: "إن الخلاص منه (=المستنقع الأفغاني) يجب أن يَمُرَّ عبر إيران، وإذا وصلت أميركا إلى طريق مسدود في أفغانستان، لا بد وأن تحصل على طريق للخلاص من هذا الطريق المسدود، فإيران طريق جيد، وإيران يمكن بشتى الطرق أن تحُلَّ هذا الطريق، وتُخلِّصَ المنطقة من الأزمة الحالية، وتنتهي هذه الأزمة".

٥. نظراً للتعاون الفارسي منقطع النظير في مرحلة تاريخية حرجة للولايات المتحدة، قام مكتب التخطيط السياسي

الأميركي بإعداد تقرير في نهاية نوفمبر ٢٠٠١، يقترح تبادلاً للمعلومات وتنسيقا مشتركاً على الحدود، وخاصة أن إيران باستطاعتها تأمين معلومات استخبارية تكتيكية بشكل «ممتاز»؛ فنقلت الوكالات (٢٠٠٢/٣/١٥) عن صحيفة «نَورُوز» الإيرانية، تأكيد نائب رئيس مجلس الشورى الإصلاحي: محسن أرمين، عن "وجود اتصالات مباشرة بين الولايات المتحدة وإيران، وأن هذه الاتصالات لطالما كانت قائمة في السنوات الماضية، وبحسب مصادر سياسية في إيران، تمت مثل هذه الاتصالات خلال الأشهر الماضية في عدد من الدول الأوروبية". وقبلها بقليل نقلت وسائل الإعلام (٢٠٠٢/٢/٩) عن رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام الرئيس الأسبق؛ علي أكبر هاشمي رفسنجاني قوله في خطبته بجامعة طهران: "إن القوات الإيرانية قاتلت طالبان، وساهمت في دَحرها، وإنه لو لم تُساعد قواتهم في قتال طالبان لغرق الأميركيون في المستنقع الأفغاني...، يجب على أميركا أن تعلم أنه لولا الجيش الشعبي ما استطاعت أميركا أنْ تُسْقط طالبان"..

٦. أدارت إدارة المحافظين الجدد في البيت الأبيض ظهرها لإيران، فتبخرت كل خدماتها عندما وُضعت على لائحة «محوَر الشر»؛ وانعكس ذلك بشكل سلبي على القيادة الإيرانية، فأعلن آية الله علي خامنئي (المرشد الأعلى) في مايو ٢٠٠٢م، أن المفاوضات مع الولايات المتحدة أمر عديم الفائدة.

٧. سنحت فرصة بإعادة اختبار الموقف الأميركي، الذي سيحتاج إيران في حربها المرتقبة على خصمها (صدام حسين)، وإمكانية كسب صفقة مهمة مع الأميركيين على حساب العراق والمنطقة؛ وصدقت توقعاتها؛ ففي أواخر ٢٠٠٢ اجتمع السفير

الأميركي في أفغانستان آنذاك «زلماي خليل زاد» بمسؤولين إيرانيين في جنيف، طالبا المساعدة في نقطتين اثنتين مبدئياً: حول مساعدة إيران لأي طيار أمريكي تسقط طائرته في الأراضي الإيرانية خلال الهجوم على العراق أولاً، وعدم إدخال أي قوات أو ميليشيات إيرانية إلى العراق خلال الهجوم ثانياً..

٨. لتوجس إيران (الصائب) من نوايا الولايات المتحدة بعد سقوط العراق، وتفاديا لهذه النتيجة، طرحوا عقد «صفقة» مع الولايات المتحدة، وفي بداية ٢٠٠٣م، كانوا يمتلكون ثلاثة عناصر جديدة، تخولهم دفع أميركا للتفاوض، وهي: نفوذ ميليشياتهم وأحزابهم السياسية الكبيرة في عراق ما بعد صدام؛ وقلق الإدارة الأمريكية المتزايد من النووي الإيراني؛ ورغبة الأميركيين في استجواب عناصر تنظيم القاعدة، الذين قامت إيران باحتجازهم كرهائن في ٢٠٠٢م.

٩. حصل مقترح الصفقة - ومسودتها الأولى - على موافقة مباشرة من القادة الإيرانيين، وعلى رأسهم المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية «علي خامنئي»، لكن إدارة بوش تباطأت في أخذه على محمل الجِد، معتبرة إياه مجرد «بالون اختبار» لابتزاز الولايات المتحدة مقابل الحصول على مكتسبات كبيرة جداً.. يقول غارثر بورتر[١]: "لقد عَرض الاقتراح السري الإيراني مجموعة مثيرة من التنازلات السياسية، التي ستقدم عليها إيران إذا تمت

---

(١) وهو مؤرخ وصحافي متخصص في الكتابة عن السياسة الأميركية تجاه إيران، ويبدي تعاطفاً شديداً تجاهها، وانتقاداً لاذعاً للإدارة الأميركية لعدم التعاون معها وتنمية العلاقات المشتركة للبلدين، وهو أحد القلائل الذين اطلعوا شخصيا على الوثيقة، إلى جانب المتخصصة في السياسة الخارجية الإيرانية في جامعة جونز هوبكنز للعلاقات الدولية المتقدمة، تريتا بارسي.

الموافقة على الصفقة الكبرى، وهو يتناول عدداً من المواضيع منها: برنامجها النووي، سياستها تجاه إسرائيل، ومحاربة القاعدة...، كما عرضت الوثيقة إنشاء ثلاث مجموعات عمل مشتركة أميركية-إيرانية بالتوازي، للتفاوض على خارطة طريق بخصوص ثلاثة مواضيع: أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، الأمن الإقليمي، والتعاون الاقتصادي...".

١٠. أهملت إدارة بوش النظر الجاد في الوثيقة السرية لسببين أساسيين: الأول: أن إيران منحت نفسها قدرا أكبر من الوزن والقوة والمكانة الإقليمية والدولية، عندما ساوت نفسها بالولايات المتحدة، وهو الأمر الذي ما كان يتم قبوله بالنسبة للاتحاد السوفيتي، فكيف بإيران!! وخاصة أن صقور الإدارة كانوا يرون أن الولايات المتحدة قادمة لتغيير الأنظمة في الشرق الأوسط، بدءاً من أفغانستان وليس انتهاء بالعراق، وقد يكون الدور على النظام الإيراني تالياً.

الثاني: وهو الأهم، أن المشكلة تكمن في المطلب الإيراني، بإعطائها الوصاية على الخليج العربي، والاعتراف بها قوة شرعية؛ إذ إن الاستجابة لمثل هذا الطلب، يعني تحويل إيران إلى قوة عالمية تسيطر على نفط العالم عبر الخليج، وتتحكم بالممرات وعوامل القوة، وتبتز الآخرين متى تشاء، وهذا أمر مرفوض بتاتاً في السياسة الأميركية، وخاصة أنها كانت قد حسمت أمرها في إخضاع منابع النفط لإشرافها مباشرة، لا سيما بعد تجربة الشاه وصدام، التي كادت أن تحوّل هذين النظامين إلى قوة عالمية تتحكم بالدول العظمى.

١١. امتعضت إيران من التصرف الأميركي -بعد تسريب

العديد من السيناريوهات الرامية إلى إسقاطها عبر هجوم عسكري كبير - الذي لم يكافئها على دورها الإيجابي، فصرح محمد علي أبطحي (نائب الرئيس الإيراني للشؤون القانونية والبرلمانية آنذاك)، في ختام أعمال مؤتمر الخليج العربي وتحديات المستقبل الذي نظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية بإمارة أبو ظبي في ١٥ / ١ / ٢٠٠٤م، قائلاً: "قدمنا الكثير من العون للأميركيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق...، ولولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة!!... لكننا بعد أفغانستان حصلنا على مكافأة وأصبحنا ضمن محور الشر، وبعد العراق نتعرض لهجمة إعلامية أميركية شرسة...".

١٢. كثفت أمريكا اللعب بورقة النووي الإيراني (فترة إدارة بوش الثانية) وصعَّد جون بولتون (نائب وزير الخارجية لشؤون الرقابة على التسلح والأمن الدولي) جهوده في الأمم المتحدة لنقل الملف من وكالة الطاقة الذرية إلى مجلس الأمن، فأدركت إيران أن الولايات المتحدة تمتلك أوراق اللعبة في الشرق الأوسط، وأن هذا سيضعف الموقف الإيراني في أي مفاوضات مباشرة، وعليه قرر المرشد الأعلى للثورة الإيرانية إرجاء موضوع الوثيقة السرية إلى حين حصول تغييرات لصالح إيران، تمكنها من دخول أي مفاوضات مباشرة من موقع القوة، ومن أجل ذلك قام بالإيعاز إلى أجهزة الدولة الإيرانية من «البَسيج» و«الباسدران»، وحرس الثورة وعناصر حزب الله وأجهزة المخابرات والجيش، بالتصويت للمرشح الرئاسي «أحمدي نجاد» ؛ لأن المرحلة تتطلب تصعيداً وهاشمي رفسنجاني ليس رجل المرحلة، فدخلت إيران - منذ ٢٠٠٥ - مرحلة التصعيد مع جيرانها ومع المنظومة الدولية، نتيجة لتشدد الرئيس الجديد.

التوقعات مع الإدارة الأمريكية الجديدة:

بسبب حماقات إدارة بوش المتتالية -عسكرياً وسياسياً واقتصادياً- لم تعُد إيران مجردَ تهديد ينبغي مواجهته، بل تحولت إلى لاعب دولي يمكن إما أن تُلحق الأذى الشديد أو أن تدفع قُدُماً أكثر الأهداف الإستراتيجية الحيوية؛ ولهذا السبب تحديداً يَرى المراقبون أن على الرئيس الأمريكي القادم[1] أن يُغير جذرياً سياسة بلاده تجاه إيران، واتِّباع نهجٍ إستراتيجي جديد تماماً، وهذا يَعني إحياءَ المفاوضات على المقترح الإيراني السري، ووضع كل الخلافات بين البلدين على الطاولة في وقت واحد، والاتفاق على حل لها كحُزمَة واحدة، بما يضمن للإيرانيين اليد العليا على المنطقة، وهذا ما يُفسر نشاط الدبلوماسية الإيرانية تجاه منطقة الخليج العربي مؤخراً (نهاية أكتوبر ٢٠٠٨)، عبر زيارات «علي لاريجاني» رئيس البرلمان الإيراني، وإبرام حِزَم من الاتفاقيات الاقتصادية والأمنية مع دول مجلس التعاون، في خطوة استباقية تضيف مزيداً من المكاسب الإستراتيجية لصالح إيران.

---

(١) كتبت هذه الدراسة في نوفمبر ٢٠٠٨، إبان احتدام المنافسة الرئاسية الأمريكية، التي فاز بها مرشح الحزب الديمقراطي باراك أوباما، وبدأ فعلياً في انتهاج سياسة المهادنة مع إيران، وتغليب لغة السياسة وتكتيكاتها على لغة التهديد العسكري والإعلامي، وكثفت دول الخليج اتصالاتها، وقد خدمها -إلى حد ما- التدهور الاقتصادي الحاد، وسعي السعودية والإمارات لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي، عبر منح مالية كبيرة.

وقد أعلن الرئيس أوباما إستراتيجيته نهاية مارس ٢٠٠٩، واحتوت ما تنبأت به الدراسة، في مسعى لترميم العلاقة إستراتيجياً مع إيران، وإكسابها صفة الشراكة في تدعيم أمن المنطقة، وخاصة العراق وأفغانستان.

موقف إسرائيل من الوثيقة:

لم تكن الوثيقةَ الإيرانية مفاجئة للعديد من الأوساط الإسرائيلية البحثية؛ إذ إنهم يعرفون أن التهديدات الإيرانية لإسرائيل وإظهار العداء أمرٌ مُصطنع مُوَجَّهٌ للاستهلاك المحلي (العالم الإسلامي)، بغرض كسب التعاطف والدعم، وليس أدل على ذلك من الرسائل التي تشير دائما إلى وجود علاقاتٍ سريةٍ وتعاونٍ بين إيران «الإسلامية» وإسرائيل «الصهيونية».(١)

أهم مؤشرات التفاهمات على فرصة الإيرانية الذهبية (الوثيقة):

ولعل إعادة إحياء المبادرة العربية لتسوية الصراع العربي

---

(١) يقول إفرايم كام، وهو أحد أشهر الخبراء في مجال الاستخبارات، والباحث في مركز جافي للدراسات الإستراتيجية في جامعة تل أبيب، في دراسة له أعدها بتكليف من وزارة الدفاع الإسرائيلية: "إن إيران من الناحية العملية، لا تعتبر إسرائيل العدو الأول لها، ولا حتى الأكثر أهمية من بين أعدائها...، وعلى الرغم من الخطاب السياسي الإيراني المناكف لإسرائيل إعلامياً، إلا أن الاعتبارات التي تحكم الإستراتيجية الإيرانية، ترتبط بمصالحها ووضعها في الخليج وليس بعدائها لإسرائيل، وهي تبدي حساسية كبيرة لما يجري في دول الجوار"؛ ونقل معهد Omedia البحثي الإسرائيلي، في تقرير مهم له بعنوان "إيران بحاجة إلى إسرائيل"، للباحث زيو مائور، ما يلي: "إن إيران لا تشكل أي خطر على إسرائيل ولا تريد تدميرها، بل هي في حاجة لإسرائيل وتعتبرها مكسباً إستراتيجياً مهماً حتى تظل قوة عظمى في المنطقة...، وهي تستغل وتستخدم إسرائيل كذريعة لتحقيق أهدافها، ولدعم مكانتها الإقليمية، ولنشر مبادئ الثورة الإيرانية تحت شعار معاداة إسرائيل...، وأما التصريحات الدعائية الإيرانية ضد الولايات المتحدة الأميركية، فهي من باب الاستهلاك الإعلامي فقط...".

الإسرائيلي من أهم المؤشرات في هذا السياق، فقبول إسرائيل العلني للمبادرة (أعلنها الرئيس شيمون بيريز الذي زار الخليج في أكتوبر ٢٠٠٨)، وبعد بدء التحرك العملي باتجاه التسوية من المتوقع - بحسب هذا السيناريو -أن تُصدر إيران (يُلاحظ هدوء في لغة خطاب الرئيس الإيراني ضد إسرائيل) بياناً ينص على أنه بحسب قرارات مجلس الأمن (٢٤٢ و٣٣٨ و١٣٩٧)، فإنها لا تُعارض تسوية تفاوضيةً للصراع العربي الإسرائيلي، وأنها تؤيد مبادرة السلام العربية (حَلُّ الدولتين) التي تلتزم بالتطبيع مع إسرائيل بعد حَلِّ القضية الفلسطينية، كما ستبدأ تدريجياً رفع غطائها ودعمها عن الفصائل الفلسطينية الجهادية، وتحويل حزب الله إلى منظمة مجتمع مدني، بمقابل منح ضماناتٍ أمنية أمريكية لطهران بعدم استخدام القوة لتغيير شكل الحكومة أو النظام القائم، وإلغاء العقوبات المفروضة عليها من جانب أمريكا أو المجتمع الدولي، والاعتراف بمكانة إيران في النظام الإقليمي والدولي.[1]

---

(١) نشرت صحيفة أخبار الخليج البحرينية في ٢٠٠٨/١١/٣، مقالاً مطولاً، علق فيه الكاتب سيد زهرة على هذه الصفقة بأن موافقة الإدارة الأمريكية على الصيغة الإيرانية المقترحة صعبة المنال؛ نظراً إلى أن الرغبة الإيرانية متفق عليها بين صناع القرار، لكن الأمر يختلف بالنسبة للإدارة الأمريكية، بتياراتها وتوجهاتها اليمينية واليسارية، ويختم بالقول: "على الأرجح من الممكن أن تجرب الإدارة القادمة فتح حوار مع إيران على مستوى محدود من المسؤولين. أما التوصل إلى صفقة كبرى بالشكل والمضمون اللذين تتصورهما إيران، فهو من أصعب الأمور؛ ببساطة لأن الثمن الذي تطلبه إيران هو ثمن فادح لا يمكن لأي إدارة أمريكية أن تدفعه..."، ويقترح عِوضاً عن ذلك على الحكومات الخليج العربية أن يكون لها دور المبادرة في أن يكون لها مقعد في هذا الحوار إن حصل: "اذا طرح مستقبلاً وبشكل جدي التفاوض بين أمريكا وإيران، فإن دول الخليج العربي يجب أن تصر على أن تشارك في أي حوار أو أي تفاوض؛ ذلك أن الأمر هنا لا يتعلق بعلاقات

ثنائية فقط بين أمريكا وإيران، وإنما يتعلق بأمن ومستقبل المنطقة كلها، وليس مقبولاً بأي حال أي حديث أو تفاوض في أي إطار عن مستقبل المنطقة في غياب الدول العربية". وبمتابعة تطورات الأحداث الإقليمية لوحظ بدء تبادل الغزل السياسي بين الجانبين مع نهاية حملة الانتخابات الأمريكية، ومنذ انطلاقة الرئيس أوباما من البيت الأبيض رسمياً؛ إذ دعا إلى القيادة الإيرانية إلى "فتح صفحة جديدة" في العلاقات؛ لكن أمريكا هذه المرة مضطرة غير مختارة لإعطاء دور لإيران في المنطقة، فالمفارقة أن الرسالة من الرئاسة الأمريكية هذه المرة جاءت إلى القيادة الإيرانية وليست للشعب كما كان متعارفا منذ قيام الثورة.

قد يبدو للبعض أن الإدارة الأمريكية الحالية تسير على نهج جديد تجاه طهران خلافاً للإدارة السابقة، لكن الحقيقة أن الخلاف الوحيد بين النهجين هو في العلانية التي تتميز بها إدارة أوباما، أما الغزل وفتح الأبواب للتعاون مع النظام الإيراني فهو مستمر من الإدارة السابقة التي رفضت تماماً توجيه أي ضربات صهيونية للبرنامج النووي الإيراني، بالإضافة إلى دعم إيران للاحتلال خلال غزو العراق وأفغانستان.

لم يُخف الرئيس الأمريكي أن الاهتمام الأساسي له بالنسبة للملفات الخارجية هو بالشأن الأفغاني، لأن أفغانستان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في أيدي طالبان، أضف إلى ذلك تزايد التعاطف الشعبي مع الحركة، بينما يفقد الاحتلال يوماً بعد يوم أي رصيد له في هذا المجال إثر ذهاب وعوده بالرخاء والإعمار أدراج الرياح؛ كما أنه لا يخشى فقط على أفغانستان بل يخشى على باكستان أيضا، التي ينشط فيها الإسلاميون المقربون من طالبان، وتعد عمقاً إستراتيجياً لأفغانستان، ويؤكد هذا الخوف النظام الضعيف في باكستان والذي يواجه بمعارضة سياسية وشعبية كبيرة. فلباكستان بالنسبة للغرب أهمية قصوى نظرا لأنها الدولة المسلمة الوحيدة التي تمتلك السلاح النووي وفي وقوعه في أيدي الإسلاميين خطورة كبيرة على الأطماع الغربية ليس فقط في جنوب آسيا، وهي منطقة حيوية ومؤثرة على مصالحه، بل أيضاً في بقية مناطق العالم التي يعيث فيها فساداً واستغلالاً.

وتحدث حالياً مسؤولون عسكريون أمريكيون عن تخطيط واشنطن لاستخدام الأراضي الإيرانية من أجل إمداد جيشها في أفغانستان بالمؤن، بعد زيادة الهجمات على قوافل الإمدادات في باكستان، وغلق القاعدة الجوية الأمريكية الحيوية في

الفراغ العربي

الحقيقة التي أصبحت ظاهرة أن دول مجلس التعاون الخليجي عبارة عن دول مكشوفة سياسياً وعسكرياً، فقرارها الإستراتيجي ليس بيدها سلماً وحرباً (الأمن القومي)، بل رسخ الفراغ العربي السياسي والعسكري النفوذ الفارسي في المنطقة بشكل كبير، فإيران بما تقدمه لحزب لله وفروعه من دعم أوجدت لها دوراً في المنطقة العربية؛ إذ أصبح الكلام الآن أن حزب الله هو امتدادٌ طبيعي لإيران، وما حدثَ في الجنوب اللبناني من انتكاسة إسرائيلية (الهراوة الأمريكية) مؤخرا أعطى إيران دفعة معنوية وإستراتيجية على المستوى العربي والإقليمي، فإذا شنت واشنطن حرباً ضد إيران (وهو احتمال بعيد جداً) فإن الخاسر الوحيد في هذه الحرب هي دول الخليج العربي، التي ستصطلي بتفوق أحد المشروعين: إما المشروع الأمريكي-الصهيوني أو مشروع النفوذ الفارسي الصفوي في المنطقة.

إن وجود مشروع إيراني إقليمي لا يمكن إغفاله، استطاع جَرّ

قيرغزستان، والملاحظ أن الليونة الأمريكية في وقت أكدت فيه طهران استمرارها في برنامجها النووي وتحديها للغرب وللوكالة الدولية، بل أشار وزير الطاقة الإيراني - بعد دعوة أوباما لفتح صفحة جديدة- إلى أن مفاعل بوشهر النووي سيبدأ العمل نهاية هذا العام في رسالة واضحة للأمريكيين بأن المساعدة في أفغانستان مشروطة بالتغاضي عن الملف النووي، كما شدد على ذلك المرجع الأعلى للثورة الإيرانية علي خامنئي، والذي طالب واشنطن صراحة بالقيام بأفعال ملموسة للتقارب مع إيران.

أمريكا، ومن ثَمَّ مساعدَتها إلى سَاحَتي أفغانستان والعراق، ونجحَ في وضعِ الجيش الأمريكي بين فكَي الكماشة في العراق، ثم استغل هذا الوضع وحرك أوراق ملفاته، ومنها ملفه النووي، ونجح أيضاً في استقطاب محاور أخرى للاصطفاف معه عربياً، مثلما أمكنه صياغة علاقات إستراتيجية مع سوريا، واللعب بحرية تامة في الميدان العراقي، مستفيداً من حالتي التشرذم والفراغ العربية، كما استطاع توظيف ورقة حزب الله ووضعه في خاصرة إسرائيل؛ ليستطيع بها ملاعبة أمريكا، التي ترقص على بأسها العسكري، وترزح تحت بؤسها السياسي، والضغط عليهم في الملفات الأخرى.

لقد أصبحت خلايا «حزب الله» اللبناني، مثالاً ينتشر في العراق والبحرين والكويت والسعودية ومصر، عن طريق التدريب العسكري والاستخباراتي، وقد سربت عدد من الجهات الصحافية أخباراً متنوعة عن هذا التوجه الإيراني، بتحويل «حزب الله» إلى ذراع عسكري واستخباراتي في المنطقة، فقد كشفت أجهزة استخبارية أوروبية في بروكسل (شهر نوفمبر ٢٠٠٨) أن استخبارات «حزب الله» وعناصر استخبارية تابعة لـ«الحرس الثوري» الإيراني وعملاء للاستخبارات السورية في لبنان، قد شكلوا خلال الأشهر الأربعة الماضية خلايا استخبارية متحركة؛ لتصفية قادة تنظيمات أهل السنة في لبنان أو اعتقالهم على أقل تقدير؛ وقالت صحيفة «السياسة الكويتية»[١] التي نقلت الخبر: "إن تلك الخلايا مهمتها تعقب التنظيمات السلفية السُّنية في بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع الغربي، وتصفية ما يمكن تصفيته من عناصرها وقادتها أو اعتقالهم وتسليمهم إلى السلطات اللبنانية، ...، القياديون

---

(١) يوم الأحد ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٨م

البارزون منهم يجري نقلهم إلى دمشق أو طهران للتحقيق معهم وكشف خفاياهم وانتشارهم في لبنان وسوريا ودول عربية أخرى".

ونسبت الصحيفة إلى دبلوماسيٍّ خليجي في العاصمة البلجيكية أنه نقل عن جهات استخبارية أوروبية قولها: "إن نحو ٢٠٠ من استخبارات الحرس الثوري الإيراني، المُجَرَّبين في العراق والبحرين ودولة الإمارات، وصلوا إلى لبنان عبر سوريا في أواخر يوليو الماضي، وباشروا إنشاء خلايا من استخبارات «حزب الله» و«حركة أمل» وعملاء للاستخبارات السورية من لبنانيين وسوريين"، بل أكدت الجهات الاستخبارية الأوروبية أنه "رغم أن دور هذه الخلايا الأساسي هو محاولة كشف الخلايا السنية في المدن اللبنانية الرئيسة وداخل المخيمات الفلسطينية، والجهات التي تؤويهم وتدعمهم بالمال والسلاح، إلا أن عملياتها (خلايا حزب الله والحرس الثوري والمخابرات السورية) المتوقعة قد تشمل الاغتيال والتطهير والتخريب".

إن المشروع الإيراني لملء الفراغ العربي حقيقة سياسية واقعة، ومن غير الموضوعية إنكارها أو التعامي عن نتائجها أو مظاهرها في دول المنطقة، فركائز هذا المشروع هي التحالف الإستراتيجي مع سوريا وحزب الله، بل المحاولات مستمرة لتطوير هذا التحالف ليشمل منظمات المقاومة الإسلامية في فلسطين (وهي التي لم تجد يداً عربية تمتد لها منذ الخيانات العربية الأولى في خمسينيات القرن الماضي)، ناهيك عن ركيزةٍ أساسية تعتمد اختراق العراق تماما، والسعي لفصل الجنوب عن الشمال والوسط، وصولاً إلى سياسة اللعب بورقة «الأقليات الشيعية» في الخليج العربي والدول العربية «المُمَانِعة» ، التي تمَّ تدريب بعضها سياسياً وعسكرياً في



سوريا ولبنان إضافة إلى إيران.[١]

لقد لَملَمَ البروفيسور «محمد لاريجاني» التصوُّر الكُلِّيّ للرؤية الإيرانية للمنطقة في نظرية أطلق عليها «أم القرى»[٢]، وهي

---

(١) كشف وزير داخلية مملكة البحرين في ديسمبر ٢٠٠٨ عن خلية إرهابية شيعية، مكونة من ١٤ عنصرا، أحدهم عنصر من وزارة الداخلية، تم تدريبهم في إيران وسوريا، كانت تنوي تنفيذ أعمال إرهابية نوعية وتفجيرات تتزامن مع احتفاليات يومها الوطني (في ١٦ ديسمبر ٢٠٠٨). صحيفة أخبار الخليج/ الأحد ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٨، كما نشرت الخبر كل الصحف البحرينية.

وفي حادث متصل كشفت صحيفة "الجمهورية" المصرية أن أصابع الاتهام في التحقيقات قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن الذين نفذوا عملية تفجير الحسين في يناير ٢٠٠٩، وأودى بحياة سائحة فرنسية وإصابة العشرات، هم خلايا تم تجنيدها إيرانياً، وأوضحت الصحيفة –في نشر أولي لنتائج التحقيقات- أن طهران ستبدأ في المرحلة القادمة إنشاء تنظيمات صغيرة في العالم العربي، وأنها ستكون تنظيمات هامشية بعيدة عن الجماعات الإسلامية، التي ستحظى بدعم إيران، وستكون على هيئة ما يطلق عليه "القائد الفردي" الذي يتحرك بمفرده ويحصل على تعليماته بالتكنولوجيا الحديثة، أما أمواله فهي أسهل وأسرع ما يمكن الحصول عليه. وأضافت "الجمهورية" أن: إرهاب إيران سيتسلل إلينا عبر المنشقين الذين نجحت طهران في استقطابهم داخل بلادهم. وأشارت إلى أن إيران نجحت في أن تجعل في كل دولة عربية منشقين عنها، موضحة أن الانتشار الجغرافي للإرهاب والتطرف هو التكتيك الجديد لإيران لنشر أسلوبها في فرض كلمتها علي الخليج العربي والإفلات بملفها النووي، وإفهام واشنطن أنها القوة المعادلة لـ"إسرائيل" وعليهم تجنبها.

(نقلا عن مفكرة الإسلام http://www.islammemo.cc/akhbar/2009/arab/03/05/78251.html).

(٢) "نظرية أم القرى الشيعية" صاغها وأطّر لها محمد جواد لاريجاني، وقدّمها إلى القارئ العربي: د.لبيب المنور، في الكتاب الصادر مؤخراً (٢٠٠٨م) عن مركز الدراسات العلمية في مكة المكرمة. ومحمد لاريجاني هو أحد أبرز خبراء إيران في مجال الفيزياء، وهو رئيس مؤسسة دراسات العلوم، تولى منصب مساعد وزير الخارجية لعدة سنين في عهد الخميني، وقد أقيل من مهامه بعد دعوته إلى

محاولة لبناء نظرية مذهبية وفق رؤية شيعية خالصة تُسهم في صياغة العلاقات المتبادلة بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية والعالم العربي خصوصاً والإسلامي عموماً، مُفترضا أن إيران هي «مركز العالم الإسلامي» سياسياً ومذهبياً؛ إذ يملك هذا المركز مقاليد الوصاية والقيادة لمسلمي العالم جميعهم، وقد أطّر لاريجاني نظريته لتكون القاعدة التي يوفر لها المذهب الشيعي غطاءً دينياً وشرعياً، مما يجعل منها النظرية الموجهة لإيران وسلوكها الخارجي في العالم الإسلامي المحيط بها، على اعتبار أن دول العالم العربي ستصبح بمثابة المقاطعات التي ستَدِينُ للولي الفقيه الشيعي «ولي أمر المسلمين» القاطن في طهران بالسمع والطاعة.[1]

وتعدُّ نظرية «أم القرى» إحدى النظريات التي تحكم حالياً مَسار السياسة الخارجية لإيرانية، وتُفسر مواقف إيران السلبية تجاه العالم الإسلامي (السُّني).

* * *

قيام علاقات مع الولايات المتحدة، وخلافاً لشقيقه الأصغر علي لاريجاني فإنه يحمل شهادة الدكتوراة في الفيزياء من إحدى الجامعات الأمريكية المعروفة، وهو «معجب بالمجتمع الأمريكي وثقافته، ويجيد اللغة الإنجليزية بدرجة ممتازة؛ شغل لاريجاني عدداً من المواقع المُهمة؛ فقد كان عضواً ومستشاراً في مجلس الأمن القومي الإيراني، ليصبح أحد أهم العقول التي صاغت السياسة الخارجية التي تعتمدها الجمهورية اليوم، والتي أثرت في توجهها وبلورة رؤيتها الإستراتيجية تجاه المنطقة والعالم.

(١) عن موقع الراصد الإلكتروني www.alrased.net/studies.php

ختـــام

هذه الرؤية ثلاثية الأبعاد محاولة لفهم مُحركاته السياسية في منطقة الخليج العربي، المبنية -كما اتضح-على أسس عقائدية غَنُوصِية، برصيد تاريخي مُمتد إلى بداية القرن السادس الميلادي، كما لا تدعو هذه الدراسة إلى اعتبار الجمهورية الإسلامية الإيرانية عدواً، بل «قلقاً» تستطيع الأنظمة العربية مجتمعة التعاطي معه بشروط خاصة تُدغم السياسي بالثقافي، وتُقدم مصلحة الأمة على مصلحة الحُكم المفرد، وتقديم عامل الدين خطوات إلى الأمام بموازات السياسة، مع الأخذ بعين الاعتبار توازن الرعب الأمني؛ لأن النظام الإيراني يَتميَّز ببراغماتية عالية، ومرونة واعية لمقتضيات مصالحه العقائدية في المقام الأول، والسياسية المنبثقة عن تلك العقائدية في المقام الثاني، ثم لا بد من الأخذ بعين الاعتبار التراكم الثقافي والتاريخي المُختزن في العقلية الجمعية للنظام الإيراني، وخاصة مرجعيتُهُ، التي تتحرك بنُبُوءَات تعتقد عِصمَتَها وصحَّتها، وتكفلتْ بشرحها وإسقاطها على الواقع؛ وبرؤية واضحة وبرنامج مُؤَصَّل، وتتخذ في سبيل تنفيذها كل الطرق والأدوات والطاقات التي تُؤمِّن قدراً عالياً من الانتفاع التفوُّق؛ فالنظام - بشقيه المرجعي والسياسي - مَسكون بعقيدة خروج «قائم آل محمد» على طريقتها، وترى في نفسها الدولةَ المُؤَهَّلةَ والوحيدة للتمهيد لمَقدَمه، وتوظِّف لأجله كل الإمكانيات الأيديولوجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتصنيعية، وترسم لنفسها موقعاً مُتقدماً في الخريطة الدولية بآلياته التي

يَفهمها اللاعبون الكبار، وتتلوَّن بألوان مقتضيات السياسة الدولية، وتلعب بكل الأوراق المُتَعارَف عليها في منظمات الضغط السياسي.

إنه من المؤسف حقاً أن يُصنِّف النظامُ الإيراني جيرانَه -شعوبا وحكومات- على أنها العدو التقليدي، بحكم أنهم «نواصب» أو «وهابية»، ويرفع في وجههم شعارات تزيد من الشحن المذهبي، وهذا تقليد دأبت عليه الحكومات المتعاقبة الإيرانية، كان آخرها التصريح الذي أدلى به أحد أبرز المستشارين الإستراتيجيين للنظام الإيراني في تحليل مطول عن مستقبل العراق الشيعي، حيث أفصح عن أن "عراق المستقبل سوف يعيد صياغة معادلات وموازين القوى في المنطقة لصالح إيران، وخصوصاً في الخليج، ففي خلال العقود الماضية كان العراق قوة مضادة توازن الدور الإقليمي لإيران...، ووجود عراق مستقل مستقل خاضع لحكم الشيعة، وفي ظل هيمنتهم، والذي لن يعود من الممكن اعتباره جزءاً لا تتجزأ من العالم العربي، سوف يسعى حتماً لإقامة علاقات وطيدة مع إيران؛ وعراق مثل هذا سوف يعزز دور إيران الإقليمي وقوته التساوقية مع الولايات المتحدة...".[1]

لكن لا يجب أن تؤخذ هذه الدعاية الإعلامية على عواهنها، فتلك تكتيكات السياسة، وأدوات اللعب ذات الحَدَّين، التي تعود بالضرر على النظام الإيراني نفسه في أحيان كثيرة، كما حدث

---

(١) وردت الدراسة في موقع فارس نيوز، عن الأستاذ كايهان بارزيجار، وفي خبر متصل نقلت وكالات الأنباء أن وزير التربية العراقي الموالي لإيران، أصدر أوامره بتغيير مسمى بحر الخليج العربي إلى الخليج الفارسي في كل مناهج التربية والتعليم المعتمدة في العراق، مع بداية العام الدراسي القادم، في مسعى لتغيير المناهج الدراسية ومحو أي بند يشير إلى خلاف مع إيران.

مع رئيس رابطة علماء المسلمين الشيخ يوسف القرضاوي نهاية العام ٢٠٠٨م؛ بل من المؤكد أن أصواتاً تختلف مع هذه الأجندة المأزومة في ظاهرها، وخاصة بعد أن تبيّن عَمَلياً أن الغرب لن يرضى عن النظام الإيراني حتى لو خرج عن جلده، وقدّم الدعم والإسناد اللوجستي والاستخباراتي للجيوش التي احتلت جيرانه (أفغانستان والعراق)[1]، وعلى العقلاء من الإيرانيين وجيرانهم - السياسيين والمثقفين والعلماء - استغلال الفرص وقطع الطريق أمام من يريد جَرَّ المنطقة وشعوبها لحمام دَم مذهبي، سيكفَّل بإعادة رسم حدودها وتحويل منطقة ما يُعرف بالشرق الأوسط إلى مقاطعات (=كنتونات) مذهبية متصارعة، تُرسم حدودها المصطنعة بالدماء.

ومن المحزن حقاً أن يبقى الحال طيلةَ قرون مضت على النحو الذي دخل فيه الأسطول البرتغالي؛ فعلى شرق بحر الخليج العربي هناك دولةٌ عظيمةُ المساحة الجغرافية من الشمال إلى الجنوب، تشكل أمةً وقيادة وتوجُّها عقائدياً وسياسياً واحداً (ولو ظاهراً)، في مقابل مجموعات من دويلات صغيرة الحجم والأثر على الضفة الغربية من بحر الخليج، تختلف أكثر مما تتفق، وقد أخفقت مشاريع وحدتها إلا من المظاهر البروتوكولية، وتَخَلَّف خطابها

---

(١) فتحت إيران مجالها الجوي مدة شهرين ونصف لدك أفغانستان عام ٢٠٠٢، ونسَّقت مع المخابرات الأمريكية طرائق التعامل مع الميلشيات الموالية لها في الداخل، كما حمت قوات بدر الموالية والمدعومة من إيران ظهر القوات الأمريكية في أثناء تقدمها إلى بغداد عام ٢٠٠٣م، وكان التنسيق على الأرض يسير على قدم وساق بين أمريكا وإيران، وأخذت إيران تفاوض الأمريكيين برصيد نفوذها في هذين البلدين المنكوبين. (المصدر: نشرات الأخبار والتقارير المختلفة التي تزامنت مع الحربين)

السياسي وثقلُها العسكري عن التناغم مع طريقة اللعب والكاريزما الإيرانية إقليمياً ودولياً.

وبالميزان التاريخي، فالقوى المتصارعة على ضفتي الخليج العربي تُعيد تحالفات الجاهلية مرة أخرى، ولكن بأساليب مغايرة، فبالأمس كانت تحالفات العرب تميل بحسب مَيَلان ميزان القوى على الأرض أو بحسب المَيل الديني، فـ«المناذرة» العرب الوثنيون في شمال شرق شبه الجزيرة كانوا ضمن حِلف الفرس، و«الغساسنة» العرب النصارى في شمال غرب الجزيرة ضمن حلف الروم؛ واليوم تُعيد الأحلاف السياسية الذاكرةَ إلى الوراء؛ إذ تتحالف القوى السياسية الرسمية «العربية» السُّنية مع الروم المعاصرين، وتتحالف التكتلات الرسمية والشعبية الشيعية مع الفرس، في سيناريو قديم جديد، لا يزال يُثير النعرات والأحقاد، بل الدماء والتشظّي المؤلم في لُحمة الأمة الإسلامية، وفي قلبها الجغرافي: الجزيرة العربية.

إن دول الضفة الغربية من بحر الخليج العربي خاصة، ترزح تحت وطأة مشكلات اجتماعية وثقافية متعلقة بالهوية الثقافية المتصارعة بين مفاهيم القبيلة ومفاهيم الدولة، أفرزتها حالة الاستعمار الأجنبي أولاً، ثم نشوء ظاهرة «تَرَفِ النفط» غيرِ المسبوقة في التاريخ؛ التي أفرزت اضطراباتٍ خلخلت التركيبةَ المجتمعيةَ -المتعارف عليها منذ القدم- بين الحاكم والمحكوم، وأحدثت فوضى تحديدِ أدوار العلاقة في حال الأمن وحال الاضراب؛ ترجع في أصولها إلى غياب المفهوم الذي يَبني هذه العلاقة ويُحركها كأمةٍ واحدة، وحدوث هوَّة آخذة في الاتساع بين الشعوب وقياداتها، وهذه - في حقيقة الأمر - تُشكل خطورةً قصوى على شرعيةِ الأنظمة استمرارا ووجوداً، وهو الشرخ الذي تدخل منه أي قوة

لها مشروعها الذي يُعيد تشكيل القناعات والمواقف والولاءات؛ مما يُلجئ الحكوماتِ إلى تأمين شرعيتها أمنياً وإعلامياً؛ فتتحول الدولة إلى عشيرةٍ مُمَانعة هَشة لا مَنَعَةٍ واقية.

هناك اعترافٌ -بل قناعة- بوجود تأزُّم سياسي ومذهبي على ضفتي بحر الخليج العربي، لكن لم تُحدد طبيعة هذا التأزيم، وهل هو إلى التصاعد أم إلى التلاشي أقرب؛ لكن الأخطر من هذه المسألة أن الطرف الغربي على بحر الخليج العربي (= دول مجلس التعاون) لم يُحدد موقعه من هذه المعادلة، هل هو في طور الوقوف بوجهه وفرض توازن الرعب، أم أنه يفضل عدم المواجهة (وهو الظاهر)، لعدم تملكه القرار الإستراتيجي وانكشاف أمنه القومي لكل لاعب غيره، وفي كلا الخيارين عليه أن يحدد آليات التعاطي الإستراتيجية والتكتيكية.

إن هذه الدول منكشفة تماماً أمام أمة عقائدية، تعتقد أنها تُمهّد لمقدم قائد عسكري أعلى، يناصب العرب العداء؛ وظيفته الأولى تطهير كل المعارضين للأئمة الإثني عشر وشيعتهم، فلن يخرج لاستتابة أحد أو التحاور معه، بل سيعتمد الوصيةَ التي جاءته عن جده رسول الله: "اقتل ثم اقتل ولا تستتيبنَّ أحداً"، فلن يعطيهم أي خيارات غير "السيف هرجاً هرجاً".[1]

(١) وهرجاً هرجاً، أي: قتلاً قتلاً. ويعلق الكوراني في تبرير أحاديث الإسراف والقسوة في قتل العرب بالقول: "لكنها في الواقع عملية جراحية ضرورية لتطهير مجتمع المسلمين ومجتمعات العالم من الطغاة والظالمين، وبدونها لا يمكن إنهاء الظلم من على وجه الأرض، وإقامة العدل خالصا كاملا، ولا القضاء على أسباب المؤامرات الجديدة التي سيقوم بها بقاياهم فيما لو استعمل الإمام معهم سياسة اللين والعفو؛ فالظالمون في مجتمعات العالم كالغصون اليابسة، بل كالغدة السرطانية لابد من استئصالها من أجل نجاة المريض مهما كلف الأمر." عصر

أليس يُرفع شعارٌ يتكرر في كل عام مرة أو مرتين، في كل مناطق الخليج العربي، بصورة متخيَّلة للإمام الحسين إما على حصانه أو صريعاً مُضرَّجاً بدمائه، وعليه عبارة: "يا لثارات الحسين"، فعلى تلك الدول وشعوبها أن تتساءل: من هو صاحب الدم؟ وممن سيكون الثأر؟

إن هذه الدراسة محاولة متواضعة لفهم ثلاثي الأبعاد للمحركات السياسية الفارسية في منطقة الخليج العربي: عقائدياً وتاريخياً ومصلحياً، يمكن بها رسم الصورة في إطارها الشمولي، بعيدا عن التجزيئية أو الانتقائية التي لا تزيد الوضع المعرفي أو التحليلي إلا تعقيداً، يصلح أن تكون مقدمة لتحرك مبني على أسس متوازنة لا تقف عند المظاهر، وتنفذ إلى الدوافع الحقيقية، وستبقى قاصرة على الأمل المنشود، أو العاطفة الجوفاء، دون تضافر الجهود المؤسسية لكافة دول مجلس التعاون، لخلق توازن ومنعة مبنية على أصول معرفية شاملة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل..

* * *

الظهور/٢٥٦. وبهذا المنطق يمكن للأمة كلها أن تلوم رسول الله ذاته على تركه المنافقين، وتلوم الخلفاء الراشدين على عدم مواصلة قتال أهل الردة، وتلوم كل أشكال التوازن الحضاري مع الخصوم التي انتهجتها الأمة ضد أعدائها، ومنهم الشيعة أنفسهم من وقت ظهورهم زمن علي بن أبي طالب وادعائهم ألوهيته.

جريدة المصادر والمراجع

أحمد زكي بدوي:

معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية/ نسخة إليكترونية

أحمد الكاتب:

تطوُّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه/ الدار العربية للعلوم-بيروت. ط٣/٢٠٠٥

إدموند بيرك:

الإسلام والسياسة والحركات الاجتماعية؛ ترجمة محروس سليمان/ مكتبة مدبولي-القاهرة/١٩٩٩م

أمل إبراهيم الزياني:

البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي/ بدون/ طبعة مزيدة ومنقحة-١٩٩٤م

أمل إبراهيم الزياني:

علاقات المملكة العربية السعودية في النطاق الإقليمي، دراسة العلاقات السعودية الإيرانية وتطور موضوع الأمن في الخليج العربي/ مطبعة دار التأليف/ ١٩٨٩م

برادلي تاير:

السلام الأمريكي والشرق الوسط، المصالح الإستراتيجية الكبرى لأمريكا في المنطقة بعد ٩/١١؛ ترجمة عماد شعيبي/ الدار العربية للعلوم-بيروت/ ٢٠٠٤م

جواد علي:

المهدي المنظر عند الشيعة الإثني عشرية؛ ترجمة أبوالعيد دودو/ منشورات الجمل-ألمانيا/٢٠٠٥م

حامد ألجار:

إيران والانقلاب الإسلامي/ طهران/ ١٩٨١م

حسين مؤنس:

أطلس تاريخ الإسلام/ الزهراء للإعلام العربي-القاهرة/ ١٩٨٧م

حسين مؤنس:

الشرق الإسلامي في العصر الحديث/ مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة/١٩٩٢م

رياض نجيب الريِّس:

مصاحف وسيوف: إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية/رياض الريس للطباعة والنشر-بيروت/٢٠٠٠م

عبدالكريم الزبيدي:

عصر السفياني/ دار الهادي-بيروت/٢٠٠٦م

عثمان الخميس:

متى يشرق نورك أيها المنتظر؟/ شبكة الآل-الرياض/٢٠٠٨م

علي الوردي:

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ مطبعة أمير-(قُم) إيران/١٩٥٢م

علي كوراني العاملي:

عصر الظهور/ دار المحجة البيضاء-بيروت. ط٧/٢٠٠٤

كارل بروكلمان:

تاريخ الشعوب الإسلامية/ دار العلم للملايين-بيروت. ط١٢/١٩٩٣م

محمد أبوزهرة:

تاريخ المذاهب الإسلامية/ دار الفكر العربي-القاهرة/ ١٩٩٦م

محمد حسنين هيكل:

الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق/ دار الشروق- القاهرة/ ٢٠٠٣م

محمد حسنين هيكل:

مدافع آية الله: قصة إيران والثورة/ دار الشروق - القاهرة. ط٣/١٩٨٣م

محمد خليفة النبهاني الطائي:

التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية/ دار إحياء العلوم-بيروت.

ط٢/١٩٩٩م

محمد سرور زين العابدين:

صفحات من تاريخنا المعاصر، أأيقاظ قومي أم نيامُ؟/ دار الجابرية-لندن. ط٢/٢٠٠٧م

محمد سهيل طقّوش:

العثمانيون من القيام إلى الانقلاب على الخلافة/ دار بيروت المحروسة-بيروت/١٩٩٥م

محمد محمد صادق الصدر:

موسوعة الإمام المهدي (٤ أجزاء)/ مؤسسة دار الحجة للثقافة-(قُم) إيران/ ٢٠٠٦م

محمود شاكر:

التاريخ الإسلامي/ المكتب الإسلامي-بيروت/١٩٩٥م

محمود شاكر:

موسوعة تاريخ الخليج العربي العربي/ دار أسامة للنشر والتوزيع-عمّان/٢٠٠٣م

موسى الموسوي:

الشيعة والتصحيح، الصراع بين الشيعة والتشيع/ الزهراء للإعلام العربي-القاهرة. ط ٢/١٩٨٩م

ميشيل جوسودويسكي:

المطامع الأمريكية في المنطقة/ دار الساقي-بيروت/ ٢٠٠٥

نيكي كيدي:

الثورات الإيرانية من منظور مقارن/ مكتبة مدبولي-القاهرة/ ١٩٩٩م